

الصورة

نجلاء عطاالله

سلسلة الرواية الأولى

الصورة

نجلاء عطا الله

رواية للفتيات والفتيان



مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي
ص.ب ١٩٧٣، رام الله- فلسطين
هاتف: ٢٩٨٦١٢١/٢ ٠٢
فاكس: ٢٩٨٨١٦٠ ٠٢
البريد الإلكتروني: tamer@palnet.com
الموقع الإلكتروني: www.tamerinst.org

Tamer Institute for Community Education
P.O Box: 1931, Ramallah - Palestine
Tel: 02 2986121/2
Fax: 02 2988160
E-Mail: tamer@palnet.com
Website: www.tamerinst.org

الطبعة الأولى ٢٠٠٩

الصندوق العربي للثقافة والفنون
The Arab Fund for Arts and Culture
صدر هذا الكتاب بدعم من
الصندوق العربيّ للثقافة والفنون

رسومات: شريف سرحان
الإخراج الفني: أضواء للتصميم. هاتف: 02 2980552

مقدمة:

تقدمُ مؤسسة تامر هذه الكتب الثلاثة لتجمعَ مبادرات مبدعة لثلاث من الكاتبات الفلسطينيات الشابات. أولت مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي ضمنَ رؤيتها اعتباراً للمجاورات الأدبية بين الشباب الفلسطيني من خلال خلق مساحة من التعبير الحرِّ والتبادلِ الفكريِّ بين فئة الفتيانِ والفتيات، الذينَ وجدوا في «أيام أدبية» فرصةً حقيقيةً لمعرفة حاجاتهم وتطوير مهارات التواصلِ فيما بينهم، والأخذ بالاعتبارِ ما تفتقرُهُ مكتباتُهُم من موضوعات أدبية كُتبت خصيصاً لفئتهم. هذه الكتب هي: «شيءٌ من نور» للكاتبة الشابةِ غيد عبد العزيز الهسي، «الصورة» للكاتبة الشابةِ نجلاء عطا اللهَ، «على رصيف المقهى» للكاتبة الشابةِ صبا توفيق.

وقد تناولت الكتبُ الثلاثةُ المواضيعَ التي تهمُّ فئة الفتيانِ والفتياتِ والتي يشعرون بضرورة وجودها ضمنَ كتب تعكسُ تجاربَهم في الحياة، وخصوصية وضعهم كفلسطينيين، وبالأخصّ في قطاع غزةَ، حيث يعانونَ من ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية سيئة، وطبيعةَ أحلامهم وما يريدون أنْ يروا عليه الحياةَ في فلسطين المحتلة، وعن أفكارهم وتطلعاتهم وطموحاتهم كفتيانٍ وفتياتٍ يعيشون ظروفاً استثنائيةً على جميع الأصعدة.

وفي سياق أكثرَ عمقاً في العملِ مع الشباب، فقد كان التركيزُ على خلق مجموعة من الكتّاب والكاتباتِ اليافعينَ واليافعات في قطاع غزة، تكونَ مرجعيّتُهُم أبناءُ بيئتهم الذين يشاركونَهُم الظروفَ والمعاناةَ والاهتمامات والأحلامَ، خصوصاً لَمَا يفتقرُهُ القطاعُ من كتّاب لليافعينَ يمتلكونَ الأدواتَ الإبداعيةَ، وبذلك يكونون أقدرَ على التعبيرِ عن هذه الفئة وعن كل ما يَمَسُّها. تم العملُ مع مجموعة مكونة من اثني عشر كاتباً وكاتبةً من الشباب والشابات على تقنيات الكتابةِ لليافعين، اشتملَ على مجموعة من العناوين الرئيسيةَ مثل تحليلِ نماذج من أدبِ اليافعين المحلية والعالميةً، فن الرواية والقصةَ والشعر وتقنياتها، وخصائص الفئة العمريةَ لليافعينَ. وتم تكثيفُ اللقاءاتَ في الكتابة العمليةِ استمدَّت عناوينَهَا وموضوعاتَها مما تم مناقشتُهُ بين الفتيانِ والفتياتَ أثناءَ مجاورتهم الأدبية، حيث اختيرت هذه الموضوعاتُ لتكونَ العناوينَ الرئيسيةَ والمكوّنَ الأساسيَّ لكتاباتِ الشبابِ والشاباتِ،

والتي تم العملُ على تطوير أفكارها الأدبية ورفع مستواها الفني. تواصلت اللقاءاتُ مع الكتّاب والكاتبات لمدة أربعة أشهر تم العملُ فيها على قراءة النصوص والأعمال الأدبية من خلال مناقشة عملية تطورها، والمشاكل العملية الكتابية، لتصبحَ عملاً أدبياً لليافعين صالحاً للنشر.

ولدعم الجهود الشابة وتوثيقها، أنتجَ الكتّابُ والكاتباتُ ثمانيةَ أعمال أدبية تنوعتَ بينَ الرواية والقصة القصيرة الموجهة لليافعين. تم تقييمُ هذهِ الأعمال من خلال لجنة ضمت خمسةً من كتّاب محليينَ وممثلينَ عن مؤسسة تامر، واختيرت ثلاثةُ أعمال باعتبارها الأفضلَ بينَ ما تم تقديمهُ ليتمَّ العملُ على إنتاجها وطباعتها ومنْ ثم توزيعها لتعميم التجربة، وبالنتيجة كان هذا الكتابُ أحدَ الكتب الثلاثة الأولى لهؤلاء الكتّاب والكاتبات.

تتقدمُ مؤسسةُ تامر بالشكر الجزيل لكلٍّ من أسهم في إنجاح هذا المشروع وإصدار هذا الكتاب، وتخصُّ بالذكر الصندوقَ العربيَّ للثقافة والفنونَ لرعايته ودعمه المتواصل للمجتمع الفلسطيني، والشبابَ والشابات المشاركين في «أيامَ أدبية»، والأستاذين عاطف أبو سيف ومحمود شقير على قيامهما بمتابعة العمل معهم على هذه الكتب.

مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، ٢٠٠٩

الصورة



(١)

في السوق

وضعت البنطال على الطاولة، نظرتُ إلى والدتي نظرة خاطفة:

- لم يناسبني.

خرجتُ مسرعاً.

كانت هذه الغرفة صغيرة كالتي سبقتها، وهي تقع تحت الدرج، وبالكاد تتسع لجسدي وللبنطال الذي أريد تجربته. فيها مرايا تتوزع على حائطين، واحدة أمام الباب والأخرى على يمينه. لا تختلف هذه الغرفة كثيراً عن غيرها من غرف المحلات الأخرى، جميعها مسكونة بشبح الأستاذ حسن، مدرس الرياضة، صورته على المرآة تلاحقني وتدق في أذني:

- أبيض، أبيض، أبيض..

- أوقفنا جميعاً في طابور، أشار بإصبعه أن أخرج عنه، سألني: أين شورطك الأبيض وبلوزتك البيضاء؟

حتى اللحظة لم أرَ الأستاذ حسن يرتدي لوناً غير الأبيض، في كل مرة يُخرِجُنِي عن الطابور ويعنفني بقسوة، كأنني الوحيد الذي خالف الزي وخرج عن طابوره «العسكري» في حصة الرياضة. أعتقد أنه لا يميز الألوان جيداً، غالباً ما يغير نظاراته السميكة، يقف قريباً مني ويبدلها

بنظارات سوداء، لا ترى إلا الألوان التي أرتديها أنا، يعاقبني ويمر من أمامي مكتفياً بي، كبش الفداء لكل حصة، ويبدأ صراخه وهو يأمرنا بالركض واللعب.

تلك المرايا اللعينة لا تنفك تعكس شبحه، يصرخ بي ويطلب مني أن أقف في الشمس الحارقة وحدي، أراقب زملائي يركضون ويتضاحكون ويتقاذفون الكرة بمهارة، وأنا أتحسر من بعيد على حظي العاثر مع اللون الأبيض. يجرون ويرتمون على الأرض، يتسخون، يقعون مرة تلو الأخرى، يمسك الواحد يد الآخر مع أنه خصمه في الفريق، ويتركونني وحيداً أتفرج عليهم.

مرآة غبية تحاول أن تغيظني، أمسحها أقترب منها، أشد قبضتي كمن يريد أن يهشمها إلى قطع صغيرة، أنظر إلى المرآة بغضب، كان هناك شيء داخلها جعلني مندهشاً، أفكر كيف استطاعت المرآة أن تتسع له وتعكسه كاملاً كما هو.

رأيت كتلة ضخمة من اللحم بثنيات ونتوءات متدلية من منطقة الصدر طبقة تتلو طبقة، جسداً ممتلئاً منفوخاً كالبالون، صورة تهزني وتصيبني بالذهول. نفخت على المرآة، مسحتها بكنزتي التي علقتها خلف الباب، الكتلة الضخمة مرة أخرى، أسرعت أشد على الكنزة وأمسح المرآة بقوة، أتمتم بخوف: «يارب تروح».

أمرر الكنزة ببطء على المرآة، قلبي يشهق، أتأمل كتلة كبيرة على مرآة في غرفة صغيرة، وصورة رجل يقول:

– شورط أبيض وبلوزة بيضاء. أبيض، أبيض، أبيض..

أعلم أني أخاف منه، وأن أرى صورته تطاردني أمر عادي بالنسبة لي،

«هو الأستاذ إللي ماسك المدرسة من غير عصاية». الأولاد يعرفونه في ما بينهم بهذه الصفة. لكنه ليس أسمر البشرة، وعلى الرغم من ضخامته يستطيع الركض في الملعب لأكثر من عشر دورات دون أن يلهث، وهو يدرب الفريق منذ اليوم الأول الذي رأيته فيه، وجميع التلاميذ يخافون منه ويقولون: «ناظر المدرسة بيعمل له حساب».

أفرك عيني، أتخيل الأستاذ حسن عملاقاً يخرج من المرآة، يضعني على ركبتيه، أرتجف خوفاً لدى اقتراب أسنانه من رأسي، ويديه الضخمتين من كتفي، يريد أن يلتهمني بقضمة واحدة بعد أن يشويني تحت الشمس، أرتعب، أمسح المرآة بعنف كأنني أعاقبها على تشويه صورة الأستاذ حسن.

كريم..

كريم..

كان هذا صوت أمي يناديني قبل أن أهرول مرعوباً من شبح المرايا والبنطال الذي وقف عند ركبتي رافضاً أن يرتفع إلى مسافة أعلى: «طلعت روحي وأنا أسايسه ليلائم مقاسي»، أزراره كثيرة. ما كان علي أن أغامر مع هذا البنطال الذي قادني لأحدق بمرآة تعكس أشباحاً ترتدي الأبيض المخيف. كيف يستطيع الأستاذ حسن أن يفعل بنا هذا! كيف يجعلنا ننظر إلى هذه الكتل الهائلة من اللحم! حتى أن شورطه لا يتجاوز الركبة، عدا عن الفتحتين الجانبيتين، أبيض مخيف يظهر تفاصيل كل ما يقع تحته! المرآة تظهر شفافيته، وهو يجبرنا أن نرتدي اللون الأبيض، ولا يتأكد قبل أن يأتي إلى المدرسة من ملابسه الداخلية! هو لا يعلم أن الأولاد في طابوره يتهامسون ويضحكون من ألوانه الحمراء والزرقاء، وتنال بلوزته البيضاء القسط الأكبر من النكات: «مفوتها

بالكرتة»، «البنت ما بتلبس أختها»، «زي النسوان لازمه إللي بيلبسوه فوق». ذات مرة، كان يرتدي سروالاً داخلياً بألوان الطيف كلها، لم يتوقف التلاميذ عن الضحك منه طوال فترة وقوفنا في طابوره الأبيض، يضحكون ويتمتمون قائلين إنه يخطئ بين ثيابه وثياب زوجته. أحاول أن أكتم ضحكتي، وأن أكون هادئاً، لأنني أخشى أن ينتبه الأستاذ حسن لي ويزمجر عليّ كالأسد ويجعلني فريسته، والجميع يضحكون بالخفية لأنني أكون دائماً ضحيته الأولى والأخيرة. يظل الأولاد يتهامسون عليه، وما إن يلتفت إلينا حتى يقف الجميع جنوداً يعظمون قائدهم المفتون بالأبيض! تلاميذ جبناء لا يجرؤ أحد منهم على أن يضحك أمامه، حتى لو كان السبب تلميذاً سرواله الداخلي زهري اللون.

أمسكُ بنطالاً آخر، أحاول تجربته مزيحاً بصري عن المرآة؛ الأزرار تعاندني مرة أخرى ولا تنطبق على فتحات البنطال، فكرت أن أذهب إلى السوق وأظل أبدل البناطيل حتى أجد ما يتناسب مع ذوقي، غير أن ذلك يجعل الأمر مملاً ويولد خيالات مرعبة، سببها الأستاذ حسن وبلوزته البيضاء وشورطه الأبيض اللذين يحاصرني بهما ويصرخ: «أين شورطك الأبيض وبلوزتك البيضاء؟» لا أجد ما يشجعني على خوض مغامرة المشي في الأسواق للبحث عن الشورط والبلوزة، إذا كنت سأنتهي بالجلوس على المقعد أراقب زملائي وهم يتوزعون على الملعب ويلعبون كما يشتهون. أتصور أنني حتى لو لبست البلوزة والشورط الأبيض، سيخرجني الأستاذ حسن من الطابور بحجة مختلفة، أنا لست جندياً منضبطاً، ولا أقف على السطر، أخل بالتوازن العام «للفيلق العسكري» وبقوانين العاشق للأبيض أستاذنا حسن!

أنا لا أحب اللون الأبيض.

لم يسبق لي أن جازفت بالتعامل مع اللون الأبيض، باستثناء تلك الأشياء الخاصة التي تقول أمي إنها أفضل، وهي تشتريها مع غيارات والدي بماركة جيدة نوعاً ما.

أزرار غبية مازلت أعجز عن إدخالها في فتحات البنطال، سأضطر إلى أن أطلب من أمي بنطالاً آخر أكبر من هذا بقليل. هناك لغز وراء البناطيل يجعل المرايا تعكس أشباحاً!

قلت لأمي:

- دعينا نذهب إلى المحل الذي عند ناصية الشارع. فهو الأفضل ودائماً أشتري منه، والعاملون فيه يعرفون ما يناسبني. سأشتري الشورط والبلوزة البيضاء، لن أرضى أن أكون عرضة لاستهزاء أصدقائي، وخصوصاً أحمد! إنه يغيظني بكل تصرفاته، لست أكرهه لكنه ينرفزني، فهو يمتلك السلطة على شلتنا في المدرسة، والجميع ينادونه: التايجر(النمر) الذي يمتاز بقدرة بدنية عالية، ولا يخاف أحداً، والطلاب في المدرسة يعملون له ألف حساب، وهو الذي يقرر أين نلعب وأين نذهب، والأهم أنه وأصدقاؤه يطلقون النكات السخيفة، ويعتقدون بهذا أنهم قادرون على إضحاك الجميع، وللمفارقة، فإن أحمد عادة ما يستحوذ على حب الأساتذة، فهو دائماً الأول علينا كما يقولون، وأتساءل كيف لشخص مثله أن يفعل هذا؟!

علاقتي مع البناطيل ما زالت على حالها، بنطال وراء آخر تناوله لي أمي من وراء الباب، وفي كل مرة، أعاني مشكلة من الأزرار والفتحات، أكاد أجزم أن هناك خللاً في صناعة هذه البناطيل! أشكر نفسي الطويل على تحملي لقياس كل البناطيل التي تناولني إياها أمي، أقيسها دون أن أنظر

إلى المرآة، لا أريد أن أرى انعكاس صورة الأستاذ حسن وزيه الأبيض في المرآة. أتخيل الآن كريمة من خارج غرفة الغيار وهي تتذمر من الانتظار، تضرب الأرض بقدميها متأففة، قائلة لأمي إني أعبث داخل غرفة الغيار.

في بعض الأحيان أعتقد أن كريمة تغار مني، فأنا ولدت قبلها بدقائق.

تذمر كريمة يفوق مقدرة أي شخص على تحمل غرفة صغيرة مفعمة برائحة جسدي، ومرايا لا تعكس إلا صورة الأستاذ حسن ببنطاله الأبيض وبلوزته البيضاء. كنت أحاول ارتداء البنطال، وكلما وصلت إلى منطقة الركبتين يصبح الوضع مقلقاً، يضيق أكثر وأكثر، وبكل ما أوتيت من قوة أحاول أن أدفع بالبنطال إلى أعلى، فيرتفع قليلاً.

أظلّ على هذه الحال حتى أصل به إلى منطقة الخصر، يتأزم الأمر أكثر! فما أن أصل إلى هنا حتى تبدأ معركتي مع الأزرار وفتحات البنطال. أدعو الله أن يمكنني من إدخال كل زر في العروة الخاصة به، أو لعلني أنادي أمي لكي تجلب بنطالاً آخر! أفتح ستارة غرفة الغيار، أسمع كعب حذاء كريمة يخبط الأرض بغضب، تتململ وتتذمر لأنني أمضيت وقتاً طويلاً، وأنني جربت معظم البناطيل الموجودة في المحل، وأن لا جدوى من تجريب بنطال آخر، قائلة لوالدتي:

- إنه سمين، ولن يفوت فيه أي بنطال.

وقالت إنني سمين وأذهب مع أمي كالبنات إلى السوق.

بقيت أمي صامتة ولم ترد عليها، ربما لم تتخيل أنني سأسمعها. ألتفت للمرآة مدركاً أنّي أكثر بياضاً منها، وهي تغار من انتظار أمي لي وبحثها عن البناطيل الجيدة، تتخيل أنها بتذمرها وحديثها الممل ستضطر أمي إلى إجباري على الخروج من الغرفة والكف عن تجريب البناطيل،

والعودة إلى المنزل دون شراء أي شيء لي.

لو أن الأمر يتعلق بكريمة، لو كانت تجرب بنطالاً أو تنورة ستظل تجرب وتجرب، حتى يمل صاحب المحل وأمي كذلك، وستظل تلفّ الأسواق حتى تتأكد أن أحداً لن يشتري مثلها، إنها بنت كثيرة الغيرة هذه الكريمة، تغار مني وأنا الأكبر منها! أجرب بنطالاً آخر، وكريمة تراهن على أن هذا البنطال لن يناسبني كغيره، وأن أمي تضيع وقتها معي في هذا المحل، كريمة تحشر أنفها في كل شيء.

لكن ماذا لو صدقت هذه المرة ولم يناسبني البنطال واستقرّ عند ركبتي ولم يرتفع عالياً؟ ستفرح كريمة. أهزّ رأسي وأفكر بأن هذا لن يحدث، ألتفت للمرايا وأحاول أن أنسى أنها تعكس صورة الأستاذ حسن،الأستاذ حسن لم يكن أسمر البشرة ولم يكن يرتدي غير شورط أبيض، شورطه جعلني أفكر بأمي التي تشتري لي ملابسي الداخلية، بقياس يكبر قياس والدي، ماذا لو كانت كريمة محقة، ولو أن أمي تشتريها لي بحجة «أنها نوعية أفضل».

أبعدُ عني هذه الأفكار، أرفع البنطال قدر استطاعتي، أحاول أن أتجاهل صوت أختي والمرآة التي أصبحت أمامي، أركز فقط على المنطقة التي يحصرها بنطالي ويقف عندها معانداً لا يريد أن يكمل الطريق، أستحضر كل طاقتي «هيا ادخل.. هيا»، الجينز يلتصق بجسدي تبلله قطرات العرق ويعلق عند منطقة الحوض، أحتاج إلى أن أمر على ثلاثة أزرار حتى أصل إلى الزر الرابع، به تنتهي حكايتي مع البنطال ويقفل عند آخر عروة مفتوحة، يطابق على الخصر ويثبت لأختي أنها تغار مني وحسب، فبناطيلها الجينز خالية من الأزرار الأربعة. لا أتوقع للصدفة أن تتكرر دائماً بحيث تكون بناطيلي بأزرار وبناطيلها بسحابات.

تضحك مني لأني آخذ أمي معي إلى السوق، ولا ترى نفسها كيف تبكي لكي تذهب معي ومع أمي كلما هممنا بالذهاب إلى السوق. مازالت طفلة ككل الفتيات المدللات، وبناطيلهن بسحابات وبعروة واحدة فقط. انتهيت من الزر الأول وأخذت نفساً طويلاً لكي أصل إلى الزر الأخير، أشهق، أسمع صدى شيء يرتطم بالبلاط ويتدحرج حتى يستقرّ عند حافة المرآة. ارتبكت، قرفصت على ركبتي لأمسك به. كان ثابتاً في الزاوية، التقطته، كان زراً كحبة فول في كفة يدي، أعض شفتي وأتخيل كريمة وهي تضحك وتقهقه:

- إنه سمين لن يفوت به أي بنطال.

انقطع الزر، أمي ستحمرّ وتزرقّ وتبدأ بالصراخ عليّ، ما كان يفترض بي أن أقيس البنطال إن كان صغيراً عليّ، وستبدأ في تذكّر كل خطأ ارتكبته ومن ثم تلصقه بقطع الزر، ستكون كريمة والبائع والزبائن بالقرب مني، وأمي ستصرخ كأن لا أحد موجود، ستجعلني طفلاً صغيراً لا يفهم شيئاً ولا يحسن التصرف. لا أعلم إن كانت كل الأمهات كذلك إن غضبن! وماذا سيكون موقع البنطال من صراخ أمي؟ هل ستشتريه لي؟ هل سيرغمها البائع على دفع ثمنه؟ لا أتصور ذلك، «إنه مجرد زر في النهاية»، سأعتبر أنّ لم يحدث شيء، سأخلع البنطال وأخرج مسرعاً، ستفهم أمي أني حزين بعد أن تعرف أنه لم يناسبني.

خلعت البنطال، وضعته على الطاولة، نظرت إلى والدتي نظرة خاطفة.

- لم يناسبني.

وخرجت مسرعاً.



(٢)
خدعة الكيس الورقي

خرجت أمي تحمل كيساً ورقياً لونه أبيض!

يبدو أن حكاية هذا اللون لن تنتهي عند الشورط والبلوزة. تساءلتُ ماذا اشترت والدتي! قلت لها إنه لم يناسبني، نعم إن الزر لم يعد موجوداً في مكانه، لكن هذا لا يعني أن يجبرها البائع على شرائه. خجلت من النظر إليها، فيما كانت كريمة تضحك من وراء أسنانها، كأنها تثأر مني لشيء لم أفعله، طأطأت رأسي ومشيت بجوارهما أفكر بالبنطال وكيف سيرافقني، هل سأرتديه؟ والزر هل سيظل في مكانه إن عاد إليه، أو سيعاندني، وككل مرة لن يطبق على خصري؟

ومن يضمن لي أن بقية الأزرار لن تسقط عند حافة المرآة كلما جربت أن أرتديه. هناك أشياء تحدث معنا لا نجد لها تفسيرات، ما الذي يجعلني أفكر بعد مضي فترة ليست بسيطة على العام الدراسي، أن أشتري زياً رياضياً لحصة موضوعة على هامش الجدول الأسبوعي، ووجه الأستاذ حسن الذي يلاحقني أينما ذهبت يخرج من مرآة الغرفة، من نوافذ السيارات العابرة، من زجاج المحلات يقول: أبيض، أبيض، أبيض..

يصرخ عليّ، يعتقد أني شخص متخاذل، أختلق الحجج ويضحك حالما أقول له أريد أن أشارك في اللعب، يقول:

- أنت معاقب لتخلفك عن أصدقائك.

كان يقصد عدم ارتدائي للون الأبيض، أحمد تلميذه المفضل يناديه بالتايجر مثلما نناديه نحن، كان اسمه أحمد النمر أو التايجر.

أحمد يفضل اللون الأزرق لون الفريق الذي يحبه، خيارات الأستاذ حسن لا تتوافق مع الجميع، على الرغم من ذلك لم يكن ذلك يشكل أزمة عند الأستاذ حسن، لم يكن الأمر يقف إلا عندي، الفرق البسيط بيني وبين أحمد أن أحمد يفطن دائماً إلى ارتداء ثيابه البيضاء، وأنا أقف أمام خزانتي أنبشها لأذهب إلى المدرسة مخذولاً، ببنطال الجينز والبلوزة الرمادية. وفي حصة الرياضة يصرخ بي الأستاذ حسن ويخرجني وحدي من الطابور، وهو غاضب:

- أين شورطك الأبيض وبلوزتك البيضاء؟

تسير أمي بخطوات متثاقلة، تشعرني كأني أخطأت في شيء ما، أو ربما كان الكيس الأبيض الذي تحمله ثقيلاً وأنا، بلا خجل، لا أحمله عنها، لكنها خرجت من المحل ورمقتني بتلك النظرات القاسية المؤنبة! كريمة تسير بنفسية الشامتة التي فازت بالرهان، تهمس في أذن والدتي:

- سمين، لن يفوت به أي بنطال.

أختلس النظر إلى الكيس الأبيض، أفترض أن أمي اشترت شيئاً آخر، لم أكن أريدها أن تبتاع البنطال بأزراره الأربعة، وتحرمني من شراء بنطال آخر أرتديه في مناسبة جميلة.

أرى بداخل الكيس الأبيض قطعة ملابس، أشك في أنها بنطال، أيعقل أن البائع اكتشف أمر الزر وأرغمها على دفع ثمن البنطال! لو أن البائع

حاول اغتنام هذه الفرصة فلن تقبل أمي الخضوع لذلك ، تعتذر له، ولا تشتري البنطال. أمي لن تشتري شيئاً سيركن في الخزانة، هي حريصة على إنفاق مالها بشكل مفيد، وعلى إدارة المنزل بحكمة، والدي مدرس ويوكل إلى أمي إدارة شؤون المنزل المالية، وبخاصة عندما يتعلق الأمر بي وبأختي كريمة. الأستاذ كرم، والدي، لا يشبه الأستاذ حسن، التلاميذ يحبونه ويأتون إلى المنزل لكي يدرسهم، لو كانوا لا يحبونه لن يأتوا إليه بشكل مستمر، والدي لا يجبرهم على ارتداء أزياء معينة، ولا يجبرهم على البحث في الأسواق عن بلوزة بيضاء وشورط أبيض.

تتهامس أمي وكريمة بخصوص المحلات التي لم ندخلها، أتمنى ألا تتفقا على دخول محلات ملابس نسائية، عندها لن أنتهي أبداً، وسأظل أخبط قدمي بالأرض من كريمة ورغبتها في قياس كل ملبوسات المحل، وفي النهاية تخرج لا يعجبها شيء. هي تفتخر بنفسها دائماً:

- أستطيع أن أجرب أي ثياب أريدها.

نقترب من محلها المفضل، أتمتم: أرجو من الله ألا تراه أو تلاحظه، لست أجرؤ على إخبار أمي بأن علينا أن نركز أكثر على بنطالي وشورطي الأبيض وبلوزتي البيضاء، لأنها لو تجاهلت كريمة ستأخذ بالبكاء، وتبدأ أسطوانتها بأن أمي تميز بيني وبينها، وأنها تحبني أكثر منها وتنحاز دائماً إلى جانبي لأني الولد.

أتذكر حينما اقترح والدي شراء هاتف نقال لي، كيف أن كريمة «أقامت الدنيا ولم تقعدها»، عيناها احمرتا، قفزت من كرسيها، وقبل أن يكمل والدي حديثه، ذكّرته بالتمييز الذي يحدث في الأسرة، وكيف أن أهلي يميلون دوماً لي: جهاز الكمبيوتر في غرفتي، مصروفي يزيد عن

مصروفها، يسمح لي بالذهاب للأماكن التي أريدها. لم تتمالك كريمة نفسها، أخذت تبكي وتشهق، ثم صفقت الباب بصوت عال وأغلقته على نفسها. تحول الموضوع من شراء موبايل إلى إرضاء كريمة. الفتيات يبكين كثيراً، كلما مرت كريمة بموقف بكت، وفي العادة، أعطيها المحارم باستهتار وأطلب منها أن تجفف دموعها.

وقفت على بابها، إنها تبكي بشدة وتضرب سريرها بدميتها غالية، اسم دميتها غالية، تقول إنها اختارت لها اسماً رصيناً يذكرها بجدتي سعاد، لا أعرف كيف ربطت بين الاسمين، لكنها تصر دائماً على أن بين سعاد وغالية شيئاً مشتركاً أنا أعجز عن فهمه وعقلي لا يستوعبه، أكثر من مرة احتد الجدال بيننا وشتمتني: أنت ولد لا تفهم هذه الأمور.

كأنها هي التي تفهم ما تقوله. جدتي جلبت غالية لكريمة، وجلبت لي دمية لم أعطها أي اسم. وضعتها في الخزانة، لا تميز جدتي بين ما تجلبه لي وما تجلبه لكريمة، ولأننا توأمان تعطيني دمية فتيات. كريمة تُخبر غالية بأن أبي رجل ظالم وأنه لا يفهمها، تجعل نبرة صوتها أعلى في كل مرة.

اقترب والدي من الباب، دقّ عليه وخاطب كريمة: «حبيبتي، صغيرتي، افتحي الباب».

كريمة تريد أن يناديها أبي حبيتي، لهذا هي تصرخ بوجه غالية أن أبي رجل ديتاكتوري، تقصد بالطبع: «ديكتاتوري». أفترض أنها سمعت هذه الكلمة في أحد المسلسلات التي تشاهدها. لا أجرؤ على السؤال عن معناها أو لماذا تستخدمها في وصف والدي، أو كيف تربط الأمور ببعضها ببعض كما فعلت مع سعاد وغالية! ستقول إنني ولد لا يفهم وإنني

غير مطلع على العالم. يتودد أبي إلى كريمة: "حبيبتي، صغيرتيد"! أبي لا يناديني هكذا، أتخيل لو أنني سأبكي وأضع غالية في حضني وأغلق الباب، فإن والدي لن يطرقه، بل سيفتحه برفق ويأخذ الكرسي ويجلس مقابل سريري، ويقول: «اذهب اغسل وجهك، ولا تبك».

نقترب من المحل الذي تحبه كريمة، تقول أن هذا المحل يستهويها باتساعه وكثرة المرايا فيه، وهو يحتوي على كل ما تحب من ملابس وأحذية، تتفاخر أمام صديقاتها بأنها تشتري منه ثيابها، كأنها الوحيدة التي تفعل ذلك، وفي بعض الأحيان، تشعرني بأنها لا تشتري شيئاً مقارنة بزميلاتها في المدرسة، وأنها لا تغير اللوك بين الفترة والأخرى. أغلب الشباب يتحدثون عن اللوك، يتأخرون عن المدرسة، ينتظرون الفتيات، وأستمع إليهم كيف يصفون لوك البنات مثل: «اليوم مغيرة شنطتها» «تنورتها غير شكل». كثيراً ما رغبت في الانتظار هناك لأرى التغييرات التي تجريها البنات على اللوك، لكن إن رأتني كريمة أو إحدى صديقاتها، لن ينقذني أحد من ردة فعل والدي. خطر ببالي أن أذهب إلى مدرسة أخرى وأن أرى بعيني دون أن أستمع إلى الشباب، سيكون الأمر مثيراً!

اقتربنا أكثر من المحل، حاولت أن أريح أمي وأحمل الكيس الأبيض، ردّت يدي ومالت بجسدها نحو الرصيف الآخر، مشيرة إلى المحل الذي فكرت أنني قد أستطيع التذاكي عليها بتجاهله.

لا مفر الآن من مواجهة صورة الأستاذ حسن وكتلة اللحم. المحل مليء بالمرايا، كريمة لم تنتظر. جرت مسرعة إلى المحل تتأمل فترينات العرض والقطع المعروضة قائلة:

- أريد أن أجرب هذه وهذه وهذه.

وبلهفة، دخلت تطلب من البائع أن يعطيها القطع لتجربها. نظرتُ إلى أمي برفق «يعني تريد أن تستأذنها»، أتصور أنها لم تترك شيئاً لم تأخذه معها إلى غرفة القياس، فلتواجه الأشباح، وهناك ستحرم بعدها أن تأخذ معها كل هذه الغيارات، كريمة لا تبحث عن شورط أبيض وبلوزة بيضاء، هي في فريق المدرسة لكرة السلة، تحصل على زيها من المدرسة، يعطون مدارس البنات كل شيء ويسمحون لهن بممارسة الألعاب، تفتخر كريمة بأن مدرستها تحصل دائماً على الكأس في نهائيات مباريات المدارس، وأنها عضو أساسي في فريق مدرستها. لا أتذكر كيف بدأت تحب الرياضة أو كيف اكتشفت أنها تستطيع اللعب، لكن أدرك أنها لا تعاني مشكلة اسمها الأستاذ حسن وبلوزته وشورطه الأبيض! أتخيل لو أن كريمة طالب في حصة الأستاذ حسن، سيحب الأستاذ حسن هذا الطالب ويشتري له الزي، هو لا يرى في الصف غيري لكي يفرض عليه سلطته.

أتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعني، حيث أجلس في محل مليء بالفتيات كالأبله، إلى أن تنتهي أختي من تجربة كل قطع المحل، أفرك عيني خجلاً وأضعهما في الأرض مبتعداً عن المرايا وعن أعين الفتيات، أتسلى بكعب حذائي وبالإيقاع الذي يتولد من صوت تلاقيه مع البلاط، أفكر بالكيس الأبيض: «ماذا اشترت أمي؟» أعتقد أني لمحت شيئاً أبيض في الكيس، لا يبيع المحل الملابس الداخلية البيضاء، ولا حتى ملابس رياضية. أمي تمسك الكيس بشدة وحين تناديها كريمة لترى القطع التي تبدلها تأخذه معها، يعني أنها لا تريدني أن أراه ، أفكر أكثر، أخبط جبيني بكف يدي، ربما اشترت شيئاً لأبي لا تريدني أن أراه!.

نادتني أمي لأبدي رأيي في بنطال تجربه كريمة. أسير وعيناي في الأرض، أكاد أجزم أن كريمة قصدت هدفاً آخر غير رؤية البنطال عليها، هي في الغالب تضحك من ذوقي في انتقاء الملابس، وتقول لولا أمي لكانت ملابسي لا تنفع إلا للمهرجين. لا أحب أن أتجادل معها لأننا سنحتد وينتهي الأمر بمعاقبتنا نحن الاثنين.

استدارت كريمة أمامي وقالت:

- أليس رائعاً.

اتجهت عيناي إلى بنطالها يملؤه جسدها، أُصبت بالغيظ وخطفت نظري من منطقة الخصر: «لم يكن بنطالها بسحاب». شعرت بشيء يمتد إلى حلقي ويقبض على حنجرتي، لا أستطيع أن أتخذ موقفاً ما، أرى في المرآة التي تنظر إليها كريمة كتلة كبيرة من اللحم تنطبق على نفسها، وتتضخم لتصير كالجبل، تقف عليه كريمة والأستاذ حسن يشيران بإصبعيهما إلى أسفل الجبل حيث أنا نعامة تدفن رأسها في الرمل، يقهقهان بصوت عالٍ: « شورط أبيض، بلوزة بيضاء»، «سمين لن يفوت به أي بنطال».

تبتسم كريمة وتدور حول نفسها زهواً وفرحاً، إنها ترتدي بنطالاً تغيظني به، البنطال بأزرار وقد استطاعت أن ترتديه بسهولة، وأن تقف أمام المرآة بثقة تامة، وبإمكانها أن تشتري البنطال إن أرادت، و لا شيء يستطيع أن يسبب لها مشكلة، لا أحتمل النظر إليها وهي تبتسم ابتسامة شريرة، لا تريد منها إلا أن تثبت أنها أفضل مني، وفي الوقت نفسه لا أريد أن أسمح لها بأن تفرح بهذه اللحظة، أبتعد دون أن أقول: أعتقد أنه يناسبك.

لن أبكي، لن أجعل بنطالاً يتسبب في بكائي، ماذا يعني أني لم أجد ما يناسبني في ذاك المحل! سنذهب إلى المحل الذي على الناصية، عندها أستطيع أن أثبت لكريمة أنها مخطئة، لا يفترض أن تستغل فرصة نزولنا إلى السوق لمصلحتها، السبب في وجودها معنا أننا أشفقنا عليها من البقاء وحيدة في المنزل، ذهب والدي عند مجموعة من الطلبة لمساعدتهم في حل مسائل حسابية صعبة، أخذت تبكي لأنها ستبقى وحيدة، والآن هي تعذبني وأنا أنتظرها في المحل.

(٣)
عند الناصية

خرجنا من المحل بعد تجربة كريمة لكل ما تقع عليه عيناها، عليّ أن أوجه نظر أمي للمحل الذي على الناصية، الأستاذ حسن سيرسل في طلب والدي إذا لم أذهب في حصة الرياضة بالشورط والبلوزة البيضاء، أدندن تلطيفاً للجو، أتودد لأمي قائلاً إني أتعبتها، وأننا سنرى محلاً واحداً فقط، وبعدها لن أشكو الأستاذ حسن حتى لو تحول إلى غول يأكل التلاميذ بعينيه، أعقد أملاً كبيراً على محل الناصية، متوقعاً أن أجد أبيض أبيض أبيض الأستاذ حسن.

تلتفت أمي لي وتعطيني الكيس الأبيض، وبحدّة الأمهات:

- لا تفتحه.

كأنها لاحظت تربّصي بالكيس واستراق النظر إليه بين الحين والحين.

تراقب كريمة تصرفي، تنظر إليّ من طرف عينها وتقول:

- علينا أن نذهب إلى المحل الذي على الناصية، هو المحل الوحيد الذي يفترض بكريم أن يدخله.

لا أعتقد أن كريمة ستوفر عليّ جهد إقناع أمي بالذهاب إلى المحل هكذا، هي تريد أن تجرحني بكلامها، ولم أفهم ما الذي ترمي إليه من تشجيعها أمي في الذهاب إلى المحل.

محل الناصية كبير جداً، واجهاته الزجاجية على شارعين رئيسين، ولصاحب المحل أسلوب جميل في عرض الثياب، يرتاده الكثير من الشباب والكبار والأطفال، تحس أن هناك سراً في هذا المحل يجعلك مرتاحاً وراغباً في البقاء فيه وتجريب أغلب الثياب لأنها جميلة، ولا تجد صعوبة في البناطيل وأزرارها.

كان يفترض بي ألا أكون عنيداً، وأن أشتري الملابس الرياضية عندما طلبها الأستاذ حسن، على كلٍّ فالمشكلة ستحل الآن، ولن أخرج من المحل دون الأبيضين على الأقل، ربما هذا سيمكنني من اللعب مع التايجر وبقية زملائنا. سألعب كرة القدم أخيراً كبقية زملائي، ولن أجلس هكذا متفرجاً ككل مرة، كم كنت غبياً حين عاندت الأستاذ حسن، بالرغم من كل شيء هو مخيف، أنا لم أكن مخطئاً، ربما قصرت قليلاً لكن سيتغير الوضع، حتماً سيتغير.

أتلهف للوصول إلى المحل والبحث عما يشفع لي في حصة الرياضة القادمة، مع كل خطوة نخطوها في اتجاه المحل، يلوح الزجاج وفترينات العرض، أستطيع أن أرى من موضعي هذا شاباً يعدل أحد التماثيل البشرية التي يستخدمونها لعرض الملابس، يبدو أن هناك مشكلة في التمثال (المانيكان)، وإذ أخذه الرجل إلى الداخل وترك مكانه خالياً.

أمي وكريمة كانتا خلفي، التفتّ إليهما وهما تتحدثان وتشيران بإصبعيهما إلى المحل، شيء ما دفعني إلى أن أسبقهما إلى المحل لكي أتأمل واجهة العرض ومكان التمثال الفارغ. أنظر إلى التماثيل الأخرى ووضعياتها المختلفة، وأسرح بخيالي نحو تشكيلات مختلفة قد تجمل من وضع التمثال، وتضفي رونقاً على واجهة العرض، أنظر إلى جسدي وإلى

التماثيل والمكان الفارغ، أتأمله. أستطيع أن أكون مثلها، أن أجرب ما أريد، كريمة تظلمني بألقابها وقولها أن لا شيء يناسبني من الملابس، سيعلم الأستاذ حسن أن بإمكاني أن أكون أفضل حتى من التايجر، «هو بس يعطيني فرصة ويشوف كيف أنا».

كان هناك تمثال واقف باتجاه الشارع، وآخر جالس على قطعة من ديكور، وهناك قطع زينة مرمية هنا وهناك، وتماثيل أخرى بعضها واقف وبعضها الآخر جالس، وهي للكبار وللفتيان وللصغار ولكل الأعمار. التمثال الذي تَرَك الشاب مكانه خالياً كان لفتى يجلس بجواره تمثال لرجل وينظر إليه وهو واقف، تمثال بثياب طفل صغير.

عندما أصبح مكان التمثال الفتى خالياً، لم تعد الواجهة جميلة، «يا ترى ماذا يريدون أن يضعوا هنا!» كنت أرتدي بلوزة تميل إلى اللون الأزرق وبنطال جينز بلون كحلي يشبه ما كان يرتديه التمثال الغائب. «أشتري أغلب ثيابي من هنا»، ربما لهذا السبب تقول كريمة إن علينا أن ندخله هو فقط، فلا داعي في كل مرة أن أجعلها هي وأمي تتعبان في لف أرجاء السوق بلا فائدة.

واجهة العرض مفتوحة، المكان فارغ وأنا أقف هنا تراودني فكرة صغيرة، أخطو إلى الواجهة وأدخل المحل، أقترب من زاوية العرض أكثر، أضع الكيس الأبيض جانباً وأقف حيث كان التمثال، أحاول أن أثبّت نفسي، أنظر إلى واجهات العرض في المحلات الأخرى وإلى التماثيل المعروضة، أستطيع أن أكون جميلاً مثلها، وملابسي جميلة أيضاً، أتأملها، أطيل النظر، أريد أن أكون أفضل بوقفتي وهندامي، أشخاص التماثيل يضع كل منهم قدماً للأمام وأخرى للخلف، يضعون أيديهم على خصورهم

أو يتركونها حرة، ويبتسمون. الأمر ليس صعباً، سأقدم خطوة وأثَبِّت نفسي مِثْلَهُم وأبتسم، «يا إلهي إني أترنح! المكان ليس بهذا الاتساع»، لا مشكلة، سأجرب، سأقف على طريقتي أنا، التماثيل الأخرى محكوم عليها بأن تظل واقفة، أنا أريد أن أكون مميزاً بحركتي وثيابي.

لم أتصور أن الأمر قد يكون صعباً إلى هذه الدرجة، لو أنهم لم يبتكروا هذه التماثيل، من سيوافق على أن يظل ثابتاً دون حركة لكي يعرض قطع الثياب؟ هذه التماثيل لها أهمية في عالم الأزياء. أتأرجح يميناً وشمالاً وأبذل طاقتي في أن أوازن نفسي، وأهتدي إلى حركة ظريفة تكون ملائمة لتمثال: «يا إلهي.. لقد تعبت»، إن الأمر أعقد مما تخيلت، يحتاج إلى ممارسة.

«كريم هيا.. وازن نفسك، إن الأمر ليس بهذه الصعوبة»، أتحدث إلى نفسي مشجعاً إياها، أنظر إلى جسدي، أعدل وضعيته، أرقب التماثيل في أرجاء الشارع، أقلد ثباتاً هنا وابتسامة هناك، سأثبت للجميع أنني أستطيع أن أقف، أتحرك، ألعب وحتى أن أعرض قطع ثياب، ربما أكون ممتلئاً أكثر من هذه الدمى الثابتة، لكن بإمكاني أن أظهر الثياب بطريقة أجمل، فهي تبدو حقيقة عليّ غير مشدودة بدبوس أو مصطنعة، انعكاس ألوان الثياب تراه حقيقياً لأن البشرة ليست من بلاستيك. سأقف وأنا أضع يدي اليمنى على خاصرتي وأجعل اليد اليسرى حرة، أما وقفتي الأساسية فستكون خطوة للأمام وأخرى للوراء، إني أرى أن هذا أفضل شيء، سأرفع رأسي وأبتسم، يا ليت كريمة تحمل كاميرا لتلتقط لي صورة، تظل تذكرها أنني استطعت أن أكون تمثالاً، استطعت أن أكون شيئاً هي لا تستطيعه، كم تتباهى بثيابها وبأنها تستحق أن تكون عارضة أزياء، إلا أنها لم تعرض ولا مرة واحدة،

شيء غريب بالفعل كيف أننا نفكر بأشياء كثيرة ولا نبادر إلى فعلها، تستهزئ كريمة بي وتطلق أحكامها عليّ دون أن يكون هناك شيء مهم فيما تقوله، تقول إني آكل كثيراً وهي تأكل مثلي!

لعلي أعقد الأمور أكثر مما يجب، إذ لا يفترض أن أجعل غضبي يحيلني إلى عدو لكريمة يتصيد أخطاءها، ستراني الآن وأنا أقف هنا وتتأكد من أنني أستطيع أن أبدو مميزاً، ولي دور في حصة الرياضة وفي المباريات، إن جعلني الأستاذ حسن أتدرب.

أستطيع أن أقف وأفخر بنفسي، أرفع رأسي وأقول للجميع «أنا كريم.. أنا كريم... أنا كريم».

أبحث عن كريمة، أرى أناساً يقفون أمام فترينات العرض، وآخرين يدخلون ويخرجون من المحلات، وأناساً يسيرون في الشارع. أمي وكريمة تقفان مثل الباقين أمام الفترينات، يتأملن ما يعرض من ثياب، أستغرب أنهما لم تفتقداني، أو لعلهما عرفتا ضمناً أني توجهت للمحل الذي على الناصية.

وقفت طفلة عند واجهة العرض حيث أقف، وأخذت تطرق عليها وتلهو، تسحب يد أمها إليها كأنها تريد أن تراني، يبدو أني أعجبت هذه الطفلة، التفتت أمها إليها، وقفت للحظة وشدت يد الطفلة وهي تركز عينيها على واجهة العرض، تنظر إلى جميع الجوانب وتعيد النظر إلي، سحبت الطفلة التي بقيت تنظر إلي ومشت وعلامات الاستغراب لا تغادر وجهها، السيدة تعجبت واستغربت ولم تعلق على شيء، هل تراني جميلاً وأنني شيء غريب مميز؟ لا يهم رأي المرأة، المهم أن الطفلة كانت سعيدة.

وقفْتُ ثابتاً، ابتسامات الطفلة أعطتني حافزاً كي أظل واقفاً في مكاني.

كانت هناك امرأة عجوز على الرصيف المقابل للمحل، تمشي وظهرها منحنٍ إلى أسفل. أخذت ترفع رأسها وتنظر إلي نظرة تجعل تجاعيد جبينها أكثر مما هي عليه، ترفع نظارتها التي على صدرها، تفركها بإشاربها وتنظر إلى الواجهة، أردت أن أبتسم لها بشكل خاص لتفهم أني أراها. قطعت العجوز الشارع وهي تنظر إليّ، ووقفت أمامي مباشرة تريد أن تلمسني لولا الزجاج الرقيق الذي يفصل بيننا، أخذت تتلفت يميناً ويساراً وتتأمل بقية التماثيل التي بجواري، وهي تهز رأسها متعجبة مستغربة، لفت يديها كعلامة سؤال وحنت رقبتها قليلاً، أدارت جسدها عني ووجها المجعد ظل يرقبني وينظر إلي بعلامة التعجب تلك، أرادت أن تلمسني، أن تتحسس الملابس وكان هناك سؤال تريد أن تسأله، هذا ما شعرت به.

تعبت قليلاً، أردت أن أجلس وأستريح، لم أتخيل أني لن أتمكن من الصمود لفترة أطول، وأني سأتعب بسرعة، فكرت بترك المكان لولا أنني لمحت صبية يضحكون ويلهون بهواتفهم النقالة، ويركضون ناحيتي بلهفة تنط من عيونهم، يتسابقون ليصلوا إلى الرصيف والمحل الذي أعرض فيه الملابس. الصبية وقفوا أمام الواجهة يلتقطون الصور بهواتفهم ويتبادلون الأدوار، اعتبروني تمثالاً متقن الصنع، التقطوا الصور وضحكوا وابتسموا، يعني أنني أعجبتهم. غادروا وهم يضحكون ويلهون، ضحكهم جعلني أقف في مكاني لا أفكر في التعب، لو أن كريمة رأتهم كيف يأخذون لي الصور وكيف هم سعداء بوجودي! غمرني شعور مذاقه لا يوصف، تنفست بعمق وتنهدت تنهيدة مليئة بالأمل.

وقف طفل صغير أمام واجهة العرض ينظر إليّ بثبات، كان جامداً في مكانه وأخذ يصرخ بشدة، لم أفهم لماذا يصرخ على هذا النحو الذي جعل

الجميع يلتفتون إليه، أمه وأبوه خشيا عليه من مكروه أصابه، كان صبياً أبيض اللون شعره أشعث، خفت للحظات وأردت أن أهرب، لكني بقيت واقفاً في مكاني محاولاً أن أحافظ على ثباتي قائلاً: «لعله يرغب في أن تشتري له أمه شيئاً وهي ترفض». الطفل لا يزال واقفاً لا يريد أن يتحرك، حاول والده أن يحمله ويأخذه من المكان، ظل يبكي ويشير إلى الواجهة، يرفس والده ويجعله ينظر إلى الواجهة، شهقة الوالد كانت ظاهرة، ترك يديه اللتين كانتا تضغطان على الصغير ووقف بجواره فاتحاً فمه!

هذه المرة خفت حقاً، ما الذي حدث؟ لماذا هم مستغربون مني؟ أصبح هناك أناس كثيرون ينظرون إلى الواجهة، ارتعبت من هذا المنظر، أصبح قلبي يدق مسرعاً، أخشى أن أتحرك فيكتشفوا أنني لست تمثالاً. لكن كيف أستطيع أن أفعل هذا وأنا أكاد أقع من شدة الرعب! إنهم يتجمهرون حولي كأنني شيء غير عادي، ينظرون إليّ كأنما يريدون أن يأكلوني بأعينهم. التفت الجميع إلى كريمة وإلى أمي وهي تشهق شهقة كبيرة، كادت تصرخ، غير أن شيئاً منعها، طأطأت رأسها وأخفت دمعتها، لا أعلم هل كانت تنتظر حدوث شيء أم أنها شعرت بالخجل مني.

لم تقل أمي أني كريم وأني ابنها، ولم تطلب من أي أحد أن يغادر كأنها لا تعرف أني أخاف من الناس عندما يكونون هكذا. شددت على نفسي، حاولت أن أكتشف ما الذي يدفع الجميع إلى أن يلتموا فجأة حولي، ويأخذوا في الهمس والضحك، ما دفع صاحب المحل إلى الخروج ليرى ما الذي يحدث أمام واجهة محله. كان رجلاً كبيراً في السن، ليس سميناً لكنه ممتلئ الجسم، رآني وأخذ يزمجر ويصرخ:

- ما هذا؟ من أوقف هذا الشيء هنا؟

دخل المحل، وأنا أتصبب عرقاً لا أدري ماذا أفعل هل أهرب؟ أخذ

صاحب المحل ينادي:

- أيها المجنون أخرج من هنا.

أخذ الناس يدقون على الواجهة ويضحكون مني:

- هذا لا بدّ فتى مخبول.

وقف صاحب المحل وعماله ورائي يريدون أن يسحبوني، والناس يقولون لهم:

- تضعون فتى سميناً ليعرض الثياب!

يقهقون ويضحكون. شعرت بالقهر والغيظ، أردت أن أهرب. أخذوا يشدونني من ثيابي وأنا أحاول جاهداً ألا أبكي، لم أستطع المقاومة، صاحب المحل وعماله خلفي يجذبونني من قميصي، والناس أمامي مثل وحوش برزت أنيابها، وحوش تضحك، تريد أن تلتهمني، وحوش غاضبة تريد أن تضربني، كان لابد لي أن أهرب وأن أفلت من بين يديهم بعد أن شقوا ثيابي، هم يشدونني، وأنا أركض في اتجاه الواجهة.

تألمت كثيراً واستيقظت وأنا ملقى على الأرض، وأمي تصرخ:

- كريم.. كريم!

جرحت من بعض شظايا الزجاج التي علقت بي، والواجهة انتشر حطامها على الأرض تحت أقدام الناس الذين ابتعدوا قليلاً خائفين أو مستغربين. لكن صاحب المحل اقترب مني، شدني من بقايا قميصي يريد أن يضربني وصرخ:

- لا بد أن تسجن على فعلتك هذه.

أمي بكت وحاولت أن تجد حلاً مع هذا الرجل العنيف، غير أنه أصر

على موقفه قائلاً لأمي:

– هذا الولد محتاج يتربى ويتعلم كيف يتصرف.

أمي قالت بانفعال:

– لقد كسر الزجاج فقط.. وسندفع لك ثمنه.

– وأنا أريد أن أسجن هذا السمين حتى يتعلم، يمكنك أن تكفلي هذا الفتى السيء عند الشرطة.

اتصلت أمي بوالدي: "الرقم الذي طلبته الآن خارج الخدمة". ظلت تسمع هذه الرسالة وتحاول أكثر من مرة، لكن والدي كان في حصة وهو عادة يغلق هاتفه. صاحب المحل اتصل بالشرطة فعلاً، وجعل الناس يتجمهرون بصورة أكبر لمعرفة ما حدث.

لم أستطع أن أركز على أي شيء كان الأمر أسرع مما تخيلت، لم أتوقع أن الأمر حقيقة وأن هذا العنيف يقصد ما يقوله، وأن صوت سيارة الشرطة سيسُمع بهذه الطريقة، كدت أتبول على نفسي خوفاً ورهبة، عند آخر لحظة تمالكت أعصابي، وحاولت أن أقف ثابتاً، فأنا لم أفعل شيئاً، هم من دفعوني إلى الهرب ولم أنتبه للزجاج الذي أمامي. ذلك الرجل الممتلئ أخافني بصوته العالي وصراخه عليّ أمام كل هذا الجمع من الناس، كنت بين يديه المتشنجتين وهو ينتظر رجال الشرطة ليسلمني إليهم، وأمي وكريمة تحاولان تهدئته وهو يشتمني:

– أين والده؟ من هو مثله ربما ليس له والد.

لم تستطع أمي أن تتحمل قسوة الرجل عليّ، حاولت أن تطمئنني وهي تعاتبني وتوبخني بشيء من الحسرة:

- كيف فعلت هذا يا كريم؟ لكن اطمئن سنأتي أنا ووالدك لنخرجك من هناك.

وقف جيب الشرطة الأزرق أمامنا مباشرة، نزل منه ضابط ضخم مخيف يحمل عصا في يده، بلعت ريقي وتشاهدت على نفسي، فمن بين يدي هذا الرجل الممتلئ الغاضب إلى يدي شرطي أكثر ضخامة، أي حظ عاثر كان حظي اليوم!

اقترب الشرطي منا بخطوات ثقيلة تهز الأرض، نظر إلي بعينين يظهر فيهما الشر، أمسك بي من بقايا بلوزتي، أخذ يهزني إلى الأمام وإلى الخلف وهو يقول:

- عجل سمين.

خاطب صاحب المحل وسأله:

- ماذا فعل هذا المشرد؟

بقيت صامتاً بالرغم من أنّ الكلام استفزني، وكريم الذي كان يقف قبل قليل في الواجهة، اختفى وأصبح كالنملة التي تختبئ وراء رجل الفيل.

صاحب المحل الممتلئ الجسم اتفق مع الشرطي الضخم على ألاّ يرحماني، فأنا أستحق السجن، ولم يأبها لكلام أمي ولا للتعويض الذي اقترحته. صاحب المحل هذا، لا أصدق أنني كنت أشتري من عنده ملابسي!

التفت الشرطي إلي باحتقار وسأل:

- ما اسمك أيها السمين؟

لم أرغب في الرد عليه، لكن أمي قالت له:

- اسمه كريم، وهو فتى جيد. أنا متأكدة أن هذا حدث بالخطأ.

ضحك الشرطي:

- حدث بالخطأ! شيء كهذا حدث بالخطأ! اقتحم المحل وكسر الزجاج، كان يدبر لأمر..

اشتاطت أمي غضباً:

- لكنه كان معي، هو فتى كيف له أن يدبر أمراً..

- أنت لا تعرفين أمثال هؤلاء، يبدون ودعاء وبالحقيقة هم سمان متشردون..

الشرطي لم يقبل التفاوض، كان أعنف من صاحب المحل وهو راغب في أن يضعني في الجيب العسكري.

- سنأخذه معنا، إن كنت تقربين له، تستطيعين أن تريه هناك..

أزاح أمي من طريقه وشدني معه إلى الجيب. لم أكن أريد أن أذهب معه، ناديت أمي:

- لا تتركيني أذهب معه، لم أفعل شيئاً! لم أفعل أي شيء!

بكيت، لم أستطع أن أكتم دمعتي أكثر من هذا، الشرطي لم يأبه لي، جرني بشدة:

- ماذا أيها السمين! هيا تحرك، تكسر زجاج المحلات وتبكي! هيا إلى الجيب.

نادى عساكره ليأخذوني. شدني اثنان منهم وحذفاني إلى الجيب العسكري كمجرم.

ضحك الجنود عليّ، وقال أحدهم:

- من كنت تفكر نفسك أيها السمين؟ ستتعلم درساً في السجن.

هددوني وهم يضحكون ويقولون: "السجن، السجن، السجن" .. بلعت ريقي بصعوبة وبكائي يزداد حدة. السرور الذي غمرني لحظات، انقلب رعباً من السجن. لا أعرف كيف سيكون، في التلفاز كنت أراهم يعذبون الناس في السجن ولا يقدمون لهم الطعام، ينسونهم هناك، وعلى الأغلب يصابون بالأمراض.

صعدت إلى الجيب بالقوة، وجلست أرقب الناس الذين تجمهروا أمام المحل، أرى في وجوه بعضهم الشماتة، وفي وجوه بعضهم الآخر الشفقة: "انظروا إلى هذا الأبله!" "ماذا أيها السمين؟ هل صدقت نفسك! "حرام أكيد مريض". "يا حرام، أمه ستحزن عليه كثيراً". كأنهم لا يعرفون أنهم السبب في كل هذا، والطفل الذي أخذ يصرخ وهو ينظر إلي، بقي هو ووالداه يقفون أمام المحل، يشاهدون ما يحدث كغيرهم، جميعهم أغبياءأغبياء، أغبياء.

أختي كريمة بقيت تتفرج كالآخرين، حتى أنها لم تقل شيئاً. خافت، نعم خافت من أن يعرف أحد بأني أخوها، إني مخربط ولا أريد أن أظلمها في هذه اللحظة، فعندما نظرت إليها قبل تحرك الجيب كانت مضطربة باكية، أمي كانت حزينة تحمل هاتفها الخليوي وتحاول أن تتصل بوالدي ليحل هذه المشكلة، صُدمت كثيراً وحتى اللحظة لا تصدق أنني في الجيب العسكري كالمجرمين.

تحرك الجيب وصاحب المحل يودع الشرطي الضخم بالضحك، أخذ نفساً عميقاً ودخل إلى محله، والناس تفرقوا كل إلى مصالحه، لا أعرف أين ذهبت أمي وكريمة، أنظر من خلال الفتحة التي في الجيب إلى الواجهة المكسورة، وإلى مكان التمثال الذي أخذت محله، وبعد كل

الذي حصل لم أجد سبباً لما فعلته، غير أنني شعرت بالفرح والسرور وأنا أقف هناك وأمارس هذه التجربة، والناس في الشوارع قليلون منهم يرتدون اللون الأبيض! هل سيفرح الأستاذ حسن لأنني لن أحضر حصص الرياضة؟ فأنا لا أعرف هل سيسجنونني لفترة طويلة أم سيطلقون سراحي في وقت قريب.

الناس على كلا الرصيفين يتأملون الملابس، يدخلون ويخرجون من المحلات، يشترون ويقفون هنا وهناك، يتأملون ويجادلون الباعة المنتشرين على الأرصفة، وأنا هنا في الجيب العسكري في طريقي إلى السجن، وبجواري عساكر يضحكون مني على ما فعلته وعلى منظري كذلك، يستهزئون بي:

– كيف فعلتها يا سمين إنت، يعني بتخيل إنو حد وسيم يعملها، بس إنت لا منظر ولا هيئة هههههههه..

بقيت صامتاً وهم يخزونني ببواريدهم:

– لحم، لحم.. أهلك بيعلفوك كويس، عشان بالآخر تسوّد وجههم.

طوال الطريق لم يكفوا عن مزاحهم الثقيل وسخريتهم، اعتبروني حثالة من الشارع و لا أستحق أن أكون إنساناً، لا أتخيل أن هؤلاء من عساكر الشرطة! الضابط توعدني وصاحب المحل رأسه يابس، وهو مصر على أن يحبسني، والدي لن يتركهم يحبسونني، سيدفع لصاحب المحل ثمن الزجاج وسأخرج، لن يدعني أبقى مع هؤلاء ومع المجرمين، أين أنت يا أبي؟ يا رب تكون فتحت تلفونك وتشوف إيش صار معي.

ماذا لو نسي أبي أن يفتح هاتفه وعاد متأخراً من الحصص كعادته؟ سأبقى في السجن. أرجوك يا أبي لا تدعني هنا، أنا خائف من الشرطة كثيراً، الضابط يريد أن يضربني، ونحن أمام المحل هددني وهزني

بعنف، الآن سيتفرد بي وسيأخذ راحته بضربي، يا إلهي! سيشوهني، سينفر الناس مني أكثر، حتى كريمة لن تتحدث إليّ، ستقرف من شكلي، لا، لا أريد أن أذهب هناك!

-أنزلوني من الجيب، أريد أن أذهب إلى البيت، أنزلوني.

تحركت بشدة وفي كل الاتجاهات أريد النزول من الجيب، لكن العساكر أمسكوا بي مويخين:

- اسكت أيها المخبول..

أوقف العسكري-السائق الجيب، ونزل منه الضابط الضخم، اقترب مني ولطخني كف:

- وين بتفكر حالك؟ في دار إمك عشان تتدلع، والا مفكر حالك ولد صغير!

لم أستطع أن أبكي، بقيت متسمراً في مكاني وهو يستهزئ بي:

- مش عن قلة إلك هالجثة من دلعك.. بس إحنا حنعرف كيف نربيك!

قذفني إلى داخل الجيب بعنف:

- بديش أسمع إلك أي صوت.

أقفل باب الجيب الخلفي بشدة:

- لا تجعلوا هذا السمين يتحرك.

جلست في قرنة الجيب لا حركة ولا صوت، وأنا مرعوب من منظر الضابط أتمتم:

- ماذا سيفعل بي؟ ماذا سيفعل بي؟



(4)
في السجن

توقف الجيب أمام مركز الشرطة وبقيت أنتظر داخله، قبل نزولنا ورؤيتي للمكان الذي أرعبني. العسكر يقفون في كل مكان، وهذا السور العالي: «هل سأبقى هنا؟» وقف عسكريان على الباب لا يتحركان، وعندما دخل الضابط الضخم رفعا يديهما تحية له، «يا إلهي كيف يمكن لهذا الضابط أن يحبسني!». مسحت عرقي وأنا أقول: «يا رب يأتي أبي.. يا رب لا تجعلني أبقى هنا وحيداً، أنا غلطان يا ربي ومش حعيدها أبداً، وحروح على الخياط أخيط البلوزة والشورط الأبيض، بس يا رب ما تخلينيش أنحبس». أنزلني العسكر من الجيب بعنف كأنني مجرم، وهم يقولون:

- «يلله انزل، انزل، بدك كباش ينزلك».

الجميع يسخرون مني ويستهزئون بي، ليس الأستاذ حسن وحده يراني سميناً، وليست كريمة وحدها.. شاتني العسكري بقدمه وهو يضحك:

- «هيا تحرك يا عارض الأزياء».

ماذا حدث مع أمي؟ هل أخبرت و الدي لكي يأتي لإخراجي من هنا أم ما زال هاتفه مغلقاً؟ «أرجوك يا أبي لا تتركني هنا»، لا أستحق أن آتي إلى هنا.

كل هذا بسبب صاحب المحل، ذلك الرجل الممتلئ الذي لم أحبه أبداً! إنه غليظ وقاسٍ وممتلئ، سيعاقبه الله على ما فعله بي، أخبرته أمي أنّ أبي سيدفع ثمن الزجاج ورفض أن يستمع إليها، سأقول لكل أصدقائي ألا

يذهبوا لمحله، لأنه رجل لئيم وأسعاره غالية، عندما شدّني من ثيابي كيف لم يلاحظ أنها من محله، الحمد الله أنه مزقها، عندما أخرج من هنا لن أبقي على أي قطعة اشتريتها منه، سأشتري ثياباً جديدة تختلف عن التي عنده.

وقفت أمام باب مقفل وفي يدي كلبشات مربوطة مع العسكري، الضابط الضخم دخل إلى الغرفة، غاب قليلاً وعاد ليأمر العسكري أن يأخذني إلى السجن، كيف يحبسني وأنا صغير أخذت أصرخ وأقول:

- أنا مازلت فتى، لا تحبسوني سيأتي أبي ويدفع ثمن الزجاج، سيأتي أبي ويدفع ثمن الزجاج!

لكن العسكري شدّني ووجهني إلى الضابط الذي نفخ بوجهي وضحك:

- أنت أيها الضخم فتى، ألا تستحي من البكاء والادعاء؟

حزنت كيف يعتقد أنني رجل كبير، حاولت أن أوضح له:

- أنا فتى، مستعد أحلف..

ملأ المركز ضحكاً وصرخ في وجه العسكري:

- خذه من أمامي حتى يتعلم كيف يفسد محلات الآخرين.

قادني العسكري إلى الزنزانة عبر درج ضيق مرعب، وكنا كلما تقدمنا خفتت الأضواء، حتى وصلناها. شعرت بالخوف ودقات قلبي تزايدت. مرة أخرى، ظهرت القضبان ومن ورائها أعداد من الناس، ألقوا بي فيها، أنظر حولي لا أعرف أحداً، أرتعش من البرد، أحاول أن ألتحف أي شيء وأجلس بعيداً عن الوحوش التي تعيش في السجن، لست منهم ولن أكون كذلك، سيكتشف الضابط أنه أخطأ كثيراً عندما وضعني هنا. مازلت صغيراً.

ذهبت إلى الزاوية، عيناي في الأرض، لا أريد أن أنظر إلى أحد. جلست مبتعداً عن الجميع، المكان مظلم، حاولت أن ألملم أطرافي وأستجمع قواي وأن أكف عن الارتعاش، لكن محاولاتي كلها باءت بالفشل. جلست وحيداً في ركن الزنزانة، مغمض العينين رأسي بين قدمي متجاهلاً كل هذا العالم، لم أرغب في الاختلاط بأي واحد منهم أو التحدث إليهم، سيأتي أبي ويخرجني من هنا، أفكر كيف أستطيع أن أتجاهل الموقف الذي أنا فيه، وأن أتمالك نفسي ولا أبكي، أتنهد وأتذكر كريمة عندما تحزن كيف تدخل إلى غرفتها وتأخذ دماها بين يديها وتحتضنها بعنف وتتحدث إليها، أتمنى لو أنني أستطيع أن أفتح ضلفة خزانتي، للبحث عن الدمية التي أعطتني إياها جدتي، سأخرجها من الخزانة وأضعها في حضني أعانقها بشدة، أبكي، وسأقول لها: أنا وحيد في السجن وأبي لم يأت ليخرجني، ربما أتى وهم لم يسمحوا له أن يدخل ليراني، الضابط الضخم لا يحبني ولن يترك أبي يدخل ليراني، يا ترى ماذا تفعل كريمة الآن؟ هل هي حزينة وتعانق دميتها غالية؟ أم أنها مسرورة لأن البيت أصبح خالياً، ولم يبق لأمي غيرها؟ آه، هي الآن تستطيع أن تلعب على الكمبيوتر، وتستطيع إقناع أمي بأن تشتري لها هاتفاً محمولاً، وربما تأخذ غرفتي. اشتقت لكريمة، هي تستفزني دائماً لكنها أختي الوحيدة وأنا أحبها.

أتوقع أنها حزينة، وتتذكر مشاغباتنا لأمي وأبي لنأخذ مصروفاً أكثر، أو ليتركونا نخرج للعب، كنا نتفق على أمي ونخبئ الأشياء لكي تبحث عنها ونحن نضحك. أمي تنسى دائماً أين تضع الأغراض».

كنا نحب أن نلعب معاً، لكن أمي لم تعد توافق على أن تلعب كريمة معي ومع أصدقائي، بل إنها منعتني من الجلوس معها ومع صديقاتها، تقول لنا عيب، عيب، ونحن لا ندري لماذا! كنا نخاف أن تعاقبنا وتخبر أبي.

- شو! ليه الحلو منورنا؟

تفاجأت بأحدهم يقترب نحوي متسائلاً، نظرت إليه مرتعشاً، وأخفضت عيني في الأرض.

- شو! ليكون مش عاجبين..؟

نبرته كانت حادة وهجومية، خشيت إن تحدثت إليه أن أدخل في مشاكل، وتمنيت أن يبتعد عني وأنا أقول لنفسي: يا رب بماذا تورطت! ساعدني!

لم يتركني لشأني، أخذ يخزني بقدميه:

- شو يا دبدوب من إيش خايف؟

انطويت على نفسي ألملم جسمي بخجل وأنا مقهور، أريد أن أتخلص من هذا الدبدوب الذي يعايرني به الجميع، لن أبك فأبدو صغيراً بنظرهم فيأخذون بالضحك.. أصبح رأسي بين قدمي وهو يضحك:

- دبدوب خاف.

كان الضحك يتدافع من كل جهة، ويقع على أذني كالإبر:

- "انظروا إلى هذا الأبله".

- "ماذا أيها السمين صدقت نفسك!"

- "حرام أكيد مريض".

سمين، سمين، سمين!

- لست كذلك، لست أبلهاً.

صرخت في وجهه، لينتفض ويمسكني من ثيابي بعنف:

- شو بتقول؟

ارتعشت بين يديه وتحول وجهي إلى ألوان:

- لا أقول شيئاً!

- شو أيها الجبان خايف تحكي؟

جبان، جبان، لا أستطيع أن أتحمل المزيد. أزحت يده عني ووقفت أمامه:

- أنا مش جبان، أنا كريم، أنا كريم.

اتقدت عيناه وزفر في الهواء وقذفني بعيداً:

- مين مفكر حالك يا كلبيظو؟

عقد لساني، والقوة التي انتابتني فجأة، أصبحت تأتأة. رأيته غولاً كالأستاذ حسن، وحشاً كالناس الذين ضحكوا مني، وضخماً كذلك الضابط. هو أسمر ووجهه عليه أثر ضربات من أكثر من جانب. لم أستطع أن أقدر عمره، لكنه لم يكن كبيراً، لم أفهم لماذا غضب إلى هذه الدرجة ولم يتحمل ما قلته.

شعرت أنني مرتبك ولا أستطيع أن أثبت على حال هل أنا خائف؟ هل أمتلك القوة للتمرد؟ لماذا لا أستطيع أن أقف في وجه هذا الرجل؟ ماذا سيحل بي؟ أصلاً نحن في السجن، لن يفكر أن يفعل أي شيء ونحن هنا، لكن يا كريم يكفي ما حصل لك اليوم، لم يكن اليوم هو الأفضل في حياتك، وأخشى أن يكون الأسوأ. حتى ولو، لن أدع هذا الشاب يهزأ بي، لن يخصم لي درجات، فهو ليس الأستاذ حسن، ولن يأمرني أن أذهب لأشتري ملابس غبية، و ليس هناك ما يملكه ليهددني به.

مازلت ممدداً على الأرض و كل من في السجن التموا عليّ، يهتفون:

- أدبوا يا بو علي.

رمقتهم بنظري محاولاً أن أستشف من هم، لماذا هم هنا؟ لكني تذكرت أني في السجن، يجب أن أعرف أن كل شيء هنا مختلف عما أعرفه،

ولأقل سبب، يمكن أن ينشب قتال بين شخص وآخر.

- أنا فتى، اسمي كريم، جئت إلى هنا خطأ.

قهقه الجميع إلا واحداً كان يرتدي بذلة ويجلس بعيداً عنهم، عندما رآني ممدداً على الأرض، اقترب نحوي يريد أن يرفعني، لكنه لم يستطع وبقي ينظر إلي بعينيه الصغيرتين كأنه يحذرني من شيء، هيئته كانت توحي بأنه رجل مختلف عن البقية، ما الذي يأتي برجل مثله إلى السجن؟ ربما هو هنا بسبب رجل كذلك الرجل الممتلئ الذي اتهمني بكسر زجاج واجهة محله، نعم أنا كسرت الزجاج لكن لم أكن أقصد، هم من دفعوني للهرب، ظل الرجل ينظر إلي كأنه يسألني لماذا أنت هنا! ياترى هل هو هنا منذ مدة طويلة؟ بينما أنا أراقب الرجل ذا البذلة، علا صوت أبي علي والرجال الآخرين:

- وكيف بيجي حد هنا بالخطأ يا حبيب إمك؟

قالوا ذلك وهم ينظرون إلى بعضهم بعضاً ويضحكون وأنا وسطهم أخشى أن أقف.

- دعوه وشأنه، يبدو أنه فتى غير مدانٍ بشيء!

- شو تكلم عمو أبو بدله؟

الرجل ذو البذلة عرف أني صغير، نعم عرف، غير أن ذلك الرجل الأسمر الغليظ رد عليه بعنف، أعتقد أنه زعيم السجن، فالجميع يسمعون كلامه، ويقفون معه ويشجعونه ليتهكم على الرجل ذي البذله وعليّ، أين أنت يا أبي لتخرجني من هنا، أين أنت؟

كم أنا خائف من أن أقضي الليل هنا مع هؤلاء الناس المخيفين، كيف سأمضي بقية الوقت معهم؟ بعد تدخل الرجل ذي البذلة، انصاعوا

لكلامه وابتعدوا عني وكذلك عنه، إنه رجل محترم، ما جعلني أستغرب لماذا هو هنا.

اتخذت من القرنة مكاناً أحشر نفسي فيه، وأدعو أن يأتي أبي وأمي وكريمة ليخرجوني من هنا، ماذا تفعلين الآن يا كريمة؟ هل أنت نائمة أم جالسة تبكين لأنك حزينة علي؟ كم مضى على وجودي هنا؟ لا أستطيع أن أركزعلى شيء، أكاد أنفجر من الحزن، لا أحب أن أنتظر، وأبقى هكذا كالمعلق، لا أعرف هل سأخرج أم سأظل في السجن.

- لماذا فعلت ذلك؟

هززت رأسي مستغرباً، صاحب البذلة يجلس بجواري ويسألني لماذا فعلت ذلك، معقول هو يعرف ما حدث في المحل، هل يعرف أني كسرت الزجاج؟

لاحظ الرجل أنني متوتر الأعصاب:

- مم أنت خائف؟

بلعت ريقي، أنظر إلى الرجل، ولسبب أجهله لم أرغب في أن أجيبه، كنت أريد فقط أن أبكي، أشعر أني صغير وأريد أن يحن عليّ أحد!

- رأيتك!

- رأيتني؟

صدمني، وكان رد فعلي تلقائياً، هل رآني وأنا أقف مثل تمثال، هل كان من الذين ضحكوا عليّ، خجلت وطأطأت رأسي، ابتسم قائلاً:

- لا تخف!

احمرّت وجنتاي ولم أعرف ماذا أقول. شعرت بالاطمئنان والأمان، وابتسمت له:

- كيف رأيتني؟

- التقطت لك صورة؟ لو كان معي هاتفي لأريتك إياها، أعجبتني.

تعجبت وسررت لما قاله، وفي الوقت نفسه ساورني الشك: أأعجبته أم هو يسخر مني؟ الجميع ضحكوا عليّ، وصاحب المحل لم يغفر لي كسري لزجاج واجهته، لا أستطيع أن أتصور أن أحداً يقول أني أعجبته، وأنه يرتاح لشكلي وطريقة وقوفي، كم مرة أخرجني الأستاذ حسن من طابور المدرسة وهو يصرخ: كريم! اعدل وقفتك، كريم اخرج عن الطابور، أنت تفسد ترتيبه.

تصطك أسناني وأنا أفكر بصوت مرتفع: أنا الآن بعيد عنهم، عندما أعود سيختلف الوضع كثيراً.

- أي وضع أيها الفتى.

رفعت رأسي، وخبطته بطرف كفي، لقد سهوت عن جلوسه إلى جواري، نظرت إليه أن لا إجابة ،كنت أريد أن أساله كيف رآني وكيف أعجبته، وأنا أفكر بهذا بادرني قائلاً:

- كنت جريئاً ومتحدياً، شعرت أنك تريد أن تصرخ وتقول شيئاً..

ضحكت في وجهه:

- لم أفكر أن أصرخ!

هز رأسه مستغرباً:

- إذاً ما الذي دفعك لفعل هذا!؟

- لا أعرف، لم يخطر ببالي شيء إلا عدم ترك المكان خالياً.

جاوبته بما شعرت به فعلاً. ابتسم وقال:

- المهم كنت جميلاً، سترى الصورة وتعرف أنك كنت جميلاً.

سرحت فيما قاله، أريد أن أرى الصورة، أريد أن أرى الشكل الذي

كنت عليه، هل كنت جميلاً؟ هل كنت سميناً كما تقول كريمة، أم كانت صورتي مناسبة لفتى لا يلعب الرياضة؟ أيعقل أن أكثر من شخص التقط لي صورة؟ ستنتشر صورتي بين الجميع وسأصبح مشهوراً! أريد أن أكون كريم الفتى الجميل المشهور، وليس كما يعتقدون كريم البدين.

بقيت أفكر بالرجل وببذلته الجميلة ولماذا هو هنا. عاودت النظر إليه بتعجب، خشيت أن أسأله، وفي الوقت نفسه، اعتراني الفضول، حاولت أن أعود إلى التقاطه للصورة وماذا كان يفعل في السوق سائلاً إياه:

- هل تعمل في السوق؟

ابتسم الرجل ابتسامة خفيفة، كأنه يريد أن يطمئنني:

- لدي محل تصوير.

بلعت ريقي وتراجعت للخلف قليلاً، وفكرت: الأستاذ حسن! لا أعلم لماذا خطر ببالي الأستاذ حسن، بالرغم من شكله الودود ونظره اللائق، فهو جميل الهيئة أنيق المظهر، لم أعرف ماذا أفعل، هل أنهض من جانبه وهو الذي يحميني من أبي علي؟ بقيت أنظر إليه وإلى الأرض وأنا متردد.

- كريم، ما الذي يزعجك؟

- لا أحب الرياضة.

ابتسم ونظر إلي نظرة بريئة مردداً مرة أخرى:

- لا تحب الرياضة! وكرة القدم لا تحبها أيضاً؟

حككت رأسي وغمزت بعيني مبتسماً:

- كرة القدم شيء آخر، أحبها لكن...

لم أكن أريد أن أقول له إن أصدقائي لا يحبون أن ألعب معهم، يقولون

عني: سمين وبدين، يسخرون ويضحكون من كل عمل أعمله.

- يرفض أصدقاؤك أن تلعب معهم.

جاوبني الرجل، وهززت رأسي. ضحك وقال:

- ما زلتم صغاراً، عندما كنت في سنك لم يكن يرضى أصدقائي أن ألعب معهم.. لكن الأشياء بعد ذلك تتغير، ويصبح لكل واحد فينا شيء يشغله يختلف عما كان يفكر فيه.

حاولت أن أفهم ما يقوله، وأفكر لماذا لم يكن أصدقاؤه يرضون أن يلعب معهم، ولماذا هو هنا؟

- اممممممم..

كنت متردداً في أن أسأله عن أي شيء، لكنني كنت أريد أن أعرف من هو وما الذي أتى به إلى هنا. تشجعت وتجرأت:

- أنت رجل محترم، لماذا أنت هنا؟

ربّت على كتفي وقهقه:

- هذا الذي يشغلك وخائف أن تسألني عنه؟ لكن لا عليك سأقول لك..

عدّل جلسته قليلاً وأخذ يكحكح استعداداً للحديث، وأنا متشوق لأعرف لماذا هو هنا:

- التهور! تهورت ودخلت في مشاجرة مع ذلك الرجل الذي يقولون له أبو علي، لم أكن أعرف أنه عنيف لهذه الدرجة.

- تشاجرت معه، لكنك قلت إنك رأيتني وكنت في السوق وصورتني أيضاً!

- لم أكذب عليك، كنت في طريقي للمحل، كانت معي أختي عندما وقفت أنظر إليك وألتقط الصور، تحرّش بنا هؤلاء الزعران، حاولت أن أتجاهلهم

لكنهم لم يكفوا عن العبث مع أختي، غضبت ودخلنا في مشاجرة.

- أنت الذي خبطته في وجهه؟

زم شفتيه وقال:

- ليس بالتحديد، أبو علي هذا متعود على المشاجرات، ويبدو أنه زائر مقيم هنا، منذ دخل الجميع رحبوا به. ربما اختلق المشكلة ليعود.

- لكنه لم يتعرض لك عندما دافعت عني.

- يبدو أنه يحب أن يفرض سلطته على كل من يدخل هنا، لا تشغل نفسك بهم، أنت ستخرج قريباً.

"بقول لك هات المصاري.." كنت غارقاً في التخيل عندما سمعت صوت الشجار بين ذلك الأبو علي ورجل آخر في السجن. حاولت أن أفهم ما الذي يحدث، وسألت الرجل ذا البذلة عن ذلك لكنه قال لي:

- لا تتدخل وابق مكانك.

استمعت إليه، فأنا لم أرد أن أغامر وأدخل في مشاكل، كان الشجار عنيفاً ووجه أبي علي أحمر. كل ما سمعته أن أبا علي يريد نقوداً من الرجل، لكن لم أستطع أن أعرف لماذا يريدها، العلاقات هنا متشابكة ولا تفهم شيئاً. ارتعبت ورغبت في الخروج بعد رؤيتي لأبي علي، وهو يخرج من جيبه سكيناً يهاجم بها الرجل. أعرف أنهم قبل دخولنا السجن يأخذون منا كل شيء، فكيف أتى بالسكين؟

بقيت أنظر من بعيد متمنياً أن ينتهي الأمر، لكن الرجل ظل يقول له:

- انت مالكش عندي أي مصاري!

اشتعل أبو علي كالحطب، أخذ يزفر بقوة وشدّ الرجل من قميصه،

ووضع السكين على رقبته:

- شو ياحبيبي، شو هاي ملكش عندي مصاري!

حاول الرجل أن يتملص منه ويهرب، اقتربا مني. بلعت ريقي، فأنا محشور الآن بين زاوية الحائط وبينهما، ارتعبت كثيراً وخفت منهما، الرجل ذو البذلة ما زال بجواري، نظر إلي وابتسم:

- لا تقلق، إنها مجرد مناوشات، وستنتهي.

أحاول أن أتمسك بما يقوله وأصدقه وأنا أراقب ما يحدث ، الأمور كانت تسوء وأبو علي يزداد غضباً على الرجل:

- بقول لك بدك تجيبهم هلقيت.

أصبح الرجل كلقمة قابلة للالتهام، وبتردد قال له:

- من وين بس أنا بدي أجيب؟

كان وجه الرجل يلامس وجهي وأنا مرتبك خوفاً، وأبو علي يقول:

- يعني بدكاش تجيبهم؟

من وراء ظهره بقوة وجه سكينه للرجل..

شعرت بوخزة حادة في جسدي. صرخ الجميع:

- شو اللي عملته؟ قتلت الولد!

كان الصوت متقطعاً والصورة غير واضحة. هذا كل ما أتذكره بعد توجيه أبي علي السكين للرجل.

طعنني أبو علي، مال الرجل إلى الناحية الثانية، فتلقيت الطعنة عنه ونقلوني إلى المستشفى.



(٥)

في المشفى

استيقظت لأرى كريمة جالسة بجواري تضحك:

- أيها المشاكس لقد خفت عليك!

بقيت صامتاً، أشعر بالتعب، ضحكت وأمسكت يدي تربت عليها:

- جاءت ضربتك خفيفة، يبدو يا أخي أن جسمك الضخم تلقى الضربة عنك!

كريمة كانت تريد أن تلطف الجو، عجيبة تلطف الجو وتقول عني: ضخم.

حاولت أن أبتسم وأن أتجاوب مع مزاحها:

- أمي ستفرح، كانت قلقة عليك. ذهبت لتحضر لك الطعام الذي تحبه.

ما زالت كريمة تضحك وتمزح:

- افرح، وجودك في المستشفى سينقذك من عقاب والدي لما فعلته في السوق، أبي يعتقد أنك أثرت فضيحة.

رغبتي في الحديث كانت فاترة، أتذكر السجن والرجل ذا البذلة، وقوله أني كنت جميلاً، والآن تقول كريمة أني ضخم. لا أرى معالم الغرفة بوضوح، يا ليتها تحتوي على مرآة، أريد أن أرى نفسي، أشعر كما لو أنني لم أرها منذ سنوات، أريد أن أرى صورتي في المرآة، لتخبرني أنا وليس أحداً غيري كيف أبدو جميلاً!

- كريم! إنت ليه وقفت هناك؟

توقعت أن تسألني كريمة، كما سيفعل الجميع، نظرت إليها، أخفضت رأسي وأنا أهزه مبيناً استيائي من اهتمامها بالموضوع وأنا في هذه الحالة.

ظلت كريمة تتحدث عن مدى استغرابها مما فعلته، اعتقدت أن أحداً ضحك عليّ وأجبرني على الوقوف هناك، قالت:

- شو اللي بخليك وانت دبدوب تقف هناك، مؤكد أن أحداً أراد أن يستهزئ بك.

بقيت صامتاً والتعب بادٍ عليّ. روت كريمة ما حدث معها بعد أخذ الشرطة لي، كأنها تعيد تمثيل المشاهد:

- حتى هذه اللحظة لا أصدق ما حدث، وكلما تذكرت ما حدث أبدو حائرة: هل أحزن عليك وأبكي، أم أضحك لأنك قدرت أن تُضحك الجميع؟

استمرت كريمة في الحديث:

- لا أنسى ردة فعل والدتي! شعرت أنها تريد أن تختبئ من الجميع، وفي الوقت نفسه لا تريد أن تتركك وحيداً، كيف حاولت تخليصك من أيدي صاحب المحل، ارتعبت عليك كثيراً عندما جاءت الشرطة، لم أتخيل أن هذا يحدث معك أنت.

ابتسمت لها، أخذت نفساً وأنا أقول لنفسي: «أنت يا كريمة لا تتخيلين شيئاً يخصني، دائماً تتهربين وتقولين أني لا أشبهك وأني سمين»

ظلت كريمة تتحدث عن الواجهة وصاحب المحل الممتلئ البخيل الذي يبدد كل نقوده على الأكل كما تعتقد. أضحكتني وأزعجتني، فرغم أنها تقصد المزاح إلا أنني تخيلت أن أحداً يقول عني أنني آكل كثيراً.

حاولت أن أومئ لكريمة بأنني أرغب في شيء من الهدوء، لكنها واصلت الكلام:

- نظرت أمي لصاحب المحل بحقد، سحبتني من يدي وجرتني مبتعدة عن الناس. شتمتني كأنني أنا التي قلت لك أن تذهب وتقف هناك بهذا الشكل الغبي الذي جعل الناس يضحكون عليك.

لم أعد قادراً على الإصغاء لكريمة. أخذت أفكر بالرجل الذي كان في السجن، وقال إنه التقط لي صورة. أيعقل أنه كان يضحك مني، أم أنه رآني بصورة تختلف عن الجميع، فركت عيني بالسبابة والإبهام وسخرت من نفسي متمتماً: أنت سمين يا كريم، أنت سمين، سمين، سمين.

يقول الطبيب لأمي إن جرحي يحتاج لوقت كي يلتئم، وأنها يجب أن تعتني بي. سيطرَ على تفكيري ذلك الرجل الذي صورني، وكذلك أبي الذي سيعاقبني، فقد تسببت له بخسارة فادحة وبفضيحة. لابد أن هناك الكثير من الناس التقطوا لي صوراً كذلك الرجل، والأولاد الذين كانوا يعبثون بالقرب من واجهة المحل، الجميع سيتحدثون عني وسيشتمونني كما فعلوا عندما أخذتني الشرطة، والجميع سيعرفون ما حدث، سيقولون أني مجنون.

ماذا سيقول أولاد مدرستي عني إذا علموا بالأمر! سيجعل التايجر الأولاد يضحكون عليّ ويتمسخرون، سيجعلونني نكتة الموسم، وسينشرون الخبر في أرجاء المدينة، سأصير مثل الأستاذ حسن الذي عرف عند شباب الحارات بصاحب الملابس النسائية الداخلية، وهو لا يُدرس إلا قلة منا، الكل يعرف ذلك، أمهاتنا وآباؤنا وآخرون ممن سمعوا عنه.

لاحظت أن الحارس الذي كان يقف بباب غرفة المستشفى لم يعد

موجوداً بعد وصول أمي وكريمة، أخبرتني أمي أن والدي حل الأمر، وأن كل ماحدث مجرد سوء تقدير من الضابط:

- أصبحت حراً يا كريم، ولا يستطيع أحد أن يسيء إليك، ذهب والدك إلى صاحب المحل وتفاهم معه.

لم أر والدي منذ وقعت المشكلة، هو مضغوط بالدروس الخصوصية، يقول أنه يفعل هذا ليوفر لنا معيشة أفضل. أنا وكريمة توأمان وحيدان، ولسنا بحاجة إلى أن يعمل والدي ليل نهار ليؤمن لنا ما يقوله دون أن نشعر به! حتى أنه لم يزرني، أستغرب لأنه وجد وقتاً ليتحدث إلى صاحب المحل ويحل معه الأمر، لكنه يريدني أن أتعلم، ويريد أن يلقنني درساً لأنني لا أسمع كلامه. والدي مثل الجميع يراني سميناً وقبيحاً. لو كانت كريمة هي التي وقعت في مشكلة، لذهب إليها مسرعاً كعادته لكي يطبطب عليها ويدللها.

أمي كذلك لم تهتم بي. تركتني أصبح بشعاً والجميع يسخرون مني ويهزأون بي، تركتني أزداد سمنة، ولم تدع كريمة تفرط في الأكل، وكانت تجبرها على ممارسة الرياضة بشكل دائم. حتى هذه اللحظة لا أجد سبباً رئيساً لذلك، لكنني أفترض أنها كانت تريدها أن تشبهها، ومع ذلك تدعي كريمة أنني أحظى بمعاملة من أبي وأمي لا تحظى هي بها.

- جلبت لك أمي الشوكولا التي تحبها.

قالت كريمة بحسد، وأعطتني الكيس المليء بالحاجات اللذيذة، أحب الشوكولا رائحتها وطعمها اللذيذ وبخاصة المرة منها، وأمي جلبت كيساً كاملاً لي وحدي! أمسكت بالكيس، لم أستطع أن أقاوم، فتحت أول واحدة والثانية والثالثة وأنا أنظر للكيس، كان يذكرني بشيء، تجاهلت

الأمر وركزت على ما احتواه من أطعمة في منتهى اللذة.

رمقتني كريمة بنظرات جاحدة:

- يكفي يا كريم، أسنانك ستتلف وستصبح أسمن مما أنت عليه.

شدتها أمي من يدها:

- اتركيه حبة زيادة لن تكون مشكلة.

- لكن..

- لكن لا شيء، اتركي أخاك يستعيد طاقته وقوته.

نسيت ما كنت أفكر فيه وما كنت أقوله عن أن أمي تجعلني أزداد سمنة، التهمت كل ما في الكيس خلال فترة قصيرة، أكلت كل أصناف الشوكولا بنهم وتوتر، كنت مضطرباً بين هل آكل أم لا أكل، وفجأة وجدتني ألتهم كل شيء وأتأمل الكيس، كان لونه أبيض، وهذا ما جعلني أسأل أمي عن الكيس الذي كنت أحمله في ذاك اليوم. برزت أسنانها ضاحكة:

- كان قميصاً لوالدك.

كنت غبياً وأبلهاً، الخوف جعلني أفترض الكثير من الأمور، أسندت ظهري إلى الوسادة وسألت والدتي:

- أين أبي؟

أخذت تتأتئ:

- زارك في الصباح وكنت نائماً، وذهب إلى المدرسة ليستأذن لك بسبب تغيبك.

المدرسة. المدرسة هي السبب في كل شيء، الأستاذ حسن والشورط الأبيض والبلوزة البيضاء، يا ترى ماذا سيقول أبي لهم؟ دخلت السجن

وهناك طعنني أحدهم لأنني جبان وسمين، أم سيجد حجة ما لغيابي، هل سيأتي التايجر وبقية زملائي لزيارتي؟ هل سيفتقدونني أم أن أمر تغيبي عادي؟

جاء أصدقائي إلى المشفى وكان معهم الأستاذ حسن، سعدت بزيارتهم وقلقت من ردة فعلهم ومن الكلام الذي سيقولونه، حاولت أن أختلق حجة وأبقي أمي في الغرفة، لا أعرف حتى اللحظة ما قاله والدي للمدرسة وما الحجة التي قدمها. كنت مرعوباً من أن يعرفوا أني ذهبت للسجن وأن واحداً هناك طعنني.

اقترب الأستاذ حسن مني، وهو يبتسم ويقول:

- يلله يا كريم من غير دلع، والا بدك تتهرب من حصص الرياضة؟

أثار أسلوب الأستاذ حسن استغرابي، كان يمزح ويتكلم بود ولطف، زيارته بحد ذاتها سببت لي مفاجأة، فأنا لم أتوقع منه مثل هذ الشيء، كيف كنت أفكر، ربما أنا أسيء الظن بالآخرين، أو إنني لا أستطيع الحكم على الأشياء بشكل صحيح.

- أتعلم يا كريم، أخو التايجر سيتزوج بعد أسبوعين.

علا صوت جلال يتحدث عن آخر الأخبار، جلال يتحدث كثيراً وهو دائم السؤال والفضول حول الأشياء التي لا تعنيه، في الفصل نطلق عليه الدودة لأنه يحشر نفسه في كل الأمور.

- سيكون يوم أحد والجميع سيحضرون، أتمنى أن تستطيع أنت..

كانت المرة الأولى التي أشعر فيها أن التايجر يهتم بي، ليس التايجر فقط بل الجميع، مازلت حائراً بماذا أخبرهم، أحمد الله أن أحداً لم

يتطرق للموضوع ومرت الزيارة على خير.

أنظر إلى أصدقائي وإلى التايجر، وأتذكر ضحكهم علي، ربما أنا لم أكن أنتبه لأمور كثيرة في ارتباطنا معاً، أتأملهم وهو موزعون في الغرفة، يبتسمون ويقولون إننا ننتظر أن تعود إلينا، والأستاذ حسن الذي كنت أتصوره وحشاً، يضحك لي. ودعني أصدقائي بحب قائلين، لا تقلق ستعوض ما فاتك، والتايجر يتبرع بأن يشرح لك كل الدروس.

المدرسة والسوق والسجن وأشياء كثيرة تخطر على بالي، وأبحث فيها عن شيء يقول لي لماذا حدث هذا، ماذا سيتغير بعد خروجي من المشفى هل سأتخلص من جسدي هذا لا أريد أن يعايرني أحد به بعد اليوم، لا أريد أن أسمع أني سمين، سمين؟.

دخلت كريمة تحمل بين يديها قالب من الشوكولا التي أحبها، وأخذت تحوم حول السرير لا تريد أن تعطيني إياها، وخارجاً عند الباب أبي ينظر إليها وهي تشاكسني. جاء أبي أخيراً.. لم أكترث للقالب الذي بين يدبها، تذكرتها وهي صغيرة كيف كانت تبكي عندما يجلب والدي قوالب الشوكولا اللذيذة، نتقاسمها وتظل تبكي قائلة إن القسمة غير عادلة وأنني أخذت حصتها، مع أنها في ذلك الوقت لم تكن تحب الشوكولا كثيراً، هي بقيت نحيفة وأنا أخذت أسمن وأسمن وأسمن حتى أصبحت كالبالون الذي أنا عليه الآن.

- كريم إنها بالبندق ألا تريدها؟

نظرت إليها، إلى القالب، إلى جسدي الممدد على السرير وإلى أبي. شيء ما يدفعني لأكون حزيناً، دخل أبي الغرفة وهو يؤنب كريمة وينظر إلي دون أن أعرف ما تحمله نظرته! هل يعاتبني على ما فعلت وعلى

ما سببته له من حرج، أم هو يرأف بي لما أصابني؟ كنت خجلاً منه، وشعرت في الوقت نفسه برغبة في النظر إليه كأنني لم أفعل شيئاً ولم أتسبب له بالإحراج!

خيم الجمود على الغرفة، وأصبحت مثل حجر ووالدي ينظر إلي، أتخيله يحمل سوطاً بين يديه ويجلدني به، وفي الوقت نفسه أتخيله يضمني إليه بشدة، ويقول لي بنبرة خفيفة بها شيء من العتاب: لماذا تورطت يا كريم بهذه الأشياء! أنت ابني الذي أحبه لماذا فعلت ذلك؟ موقف صعب! يا ليت والدي يبادر إلى إنهاء هذا الحاجز الذي بنيته من الخوف.

- كيف أنت الآن؟

سألني بنبرة هادئة لمست فيها قلقه عليّ، ارتحت وابتسمت إليه:

- أحسن بكثير.

- يلله شد حيلك بدنا نطلعك اليوم.

والدي كان يتحدث إلي بشكل عادي كأن شيئاً لم يكن، وكان يرمقني بنظرات لا تحمل إلا القلق، لا أنكر أني ارتحت وفي الوقت نفسه انتابني شعور بالقلق من الأيام القادمة.

تحمست كريمة لسماعها أنني سأخرج اليوم، واستعدت لتوضيب الأغراض.

سأخرج اليوم، كانت مغامرة غير متوقعة، لكنني شعرت بشيء من الاهتمام والإثارة، وبأنني تغيرت. كنت راغباً في الخروج، شعرت بالاشتياق للكثير من الأشياء، للشارع وللمدرسة، بالرغم من السخرية والمزاح، اشتقت للكرة التي أتمنى أن ألعبها. لكن لا يهم، اليوم سأخرج من هنا!



(٦)
كريم في المرآة

غرفتي ليست كبيرة، لكن فيها مرآة داخل الخزانة، وهذا ما لم يكن يجعلني ألتفت إليها، أضحك وأتذكر المرآة في تلك الغرفة الصغيرة التي تكون بداخل المحلات، وأتذكر شبح الأستاذ حسن الذي يطاردني وهو يقول: أبيض، أبيض، أبيض.

أريد أن أحصل على الأبيضين، وأن أذهب إلى الحصة القادمة وأنا أرتديهما، ربما سيسخر الجميع مني، لكنني سأثبت للأستاذ حسن أنني لست كسولاً ولا أحب الرياضة كما يتصور.

أقترب من خزانتي ببطء وأنا متردد، هل أفتح الضلفة أم لا؟ وأنا لا أتصور أن الأشباح لها علاقة بمرآتي، فهي متواضعة وصغيرة ولا يزورها أحد إلا أنا، وكنت أزورها عابراً، كنت أريد أن أرى نفسي بلهفة، أحس أنني لا أعرف شكلي وأنني من زمن لم أر المرايا، كنت متردداً، تخطر ببالي الصورة التي التقطها لي السيد عمر (ذلك الرجل في السجن) يا ليتني أستطيع أن أراها، لابد لي من زيارته في محله.

أقترب من الخزانة شيئاً فشيئاً وتمتد يدي إلى الضلفة، أفتح الضلفة وأرفع عيني إلى المرآة لأصطدم بكتلة ضخمة تفوق توقعاتي، كان اللحم يتدلى من كل جانب، وهناك جرح أسفل البطن بالكاد يظهر من بين

طبقات اللحم. شهقت شهقة كبيرة، فتحت الضلفة وأغلقتها أكثر من مرة، لم أكن أتوقع أنني على هذه الصورة! أخذت أخبط يدي برأسي وأنا غارق في الندم والقهر والإحساس بالجهل، أتمتم بحنق: الجميع معهم حق: أنا سمين ،سمين، سمين!

دخلت أمي عليّ وأنا على وشك البكاء. صاحت بي:

- لماذا قمت من السرير؟

أرمقها بعينين دامعتين كأنني أقول لها: لماذا تركتني أصل إلى هنا! أمي هي التي تستحق اللوم، هي من تركتني آكل بشراهة حتى وصلت إلى هذا، وفي المشفى لم تترك شيئاً إلا جلبته لي لآكله، حتى أصبحت أضخم من السابق، نظرت إليها بحسرة وتوجهت إلى السرير.

رقدت في السرير وفكرت: أولئك الذين كانوا في السجن وأصدقائي، كلهم على حق، أنا لن يناسبني شيء، أنا ضخم وسمين، كتل هائلة من اللحم ليس أكثر، ولست أجيد فعل شيء.

شعرت أني أتألم وأن هنالك شيئاً يضغط علي، ويدفعني لأن أحزن وأغضب، كنت أريد أن أنسى أنني نظرت إلى المرآة.

التفت إلى كل أنحاء الغرفة، نظرت إلى الصور المعلقة على الحائط والدفاتر المرمية هنا وهناك، وإلى ملابسي الضخمة، تأملتها وأنا أتذكر البنطال الذي لم يدخل فيّ ولم تنطبق أزراره على خصري، وكريمة التي كانت تلف وتدور متباهية بما ترتديه. تساءلت: لأي درجة أنا سمين؟ وكيف أستطيع أن أشتري ملابسي البيضاء التي سأرتديها في حصة الأستاذ حسن؟ هل سأجدها في السوق أم أذهب إلى الخياط أبي محمود كما قالت أمي، وأطلب منه أن يخيط لي ملابسي؟

استيقظت متمنياً أن أنحف أو أن تحدث لي معجزة، أركض إلى المرآة، أنظر إلى جسدي لعله تغير! أصبح همي الوحيد كيف أتخلص من هذا الجسد، لم أعد أبالي بشيء إلا هذا الأمر، حتى الآخرين لم يعودوا سوى دمى تتكلم من حولي، ولا تشعر بالمصيبة التي أنا فيها، قررت أن أكرس الفترة القادمة لكي أتغير، سأغير «اللوك».. نعم «اللوك»! عليّ أن أعرف شيئاً عن اللوك.

سأذهب إلى المدرسة اليوم بعد هذا الغياب الطويل، أقف أمام المرآة وأنا أنظر إلى نفسي بتحسر، سأذهب بعد انتهائي من المدرسة إلى أبي محمود ليخيط لي الشورط والبلوزة البيضاء بحسب طلب الأستاذ حسن. كنت متلهفاً لرؤية الأستاذ حسن ولإخباره أنني سأرتدي الملابس الرياضية في حصة الرياضة، وأنه لن يضطر لمعاقبتي بعد اليوم.

قالت كريمة:

- لا تنس مباراة اليوم، ستكون في الملعب الكبير.

كانت متشوقة للمباراة، كل يوم تعود من المدرسة لتقصّ علي ما يحدث في التدريبات وأنا أتحسر، تقول إن فريقها استعد لمواجهة الفريق الآخر بأكثر من خطة، والفوز في المباراة يعني أن فريقها سيحافظ على الكأس لسنة أخرى. تقف أمام المرآة التي بجوار المدخل الرئيسي للبيت، ثم تذهب وتجيء وهي تنظر إلى زيها للتأكد من أنه نظيف، وأنها أنيقة، فاليوم مباراة العمر بالنسبة لها، أتخيلها في الملعب وهي تقفز وتطير بالكرة، لا أستطيع أن أفعل مثلها، أشك في أن كريمة أخذت حصتي من الحياة، بإمكانها أن ترتدي تنورتها وتي شيرتها الأبيض، وأن تلعب باحتراف، وأن تجرب البناطيل التي بأزرار بكل أريحية، أتأمل كريمة وملابسها البيضاء الجميلة واللوك الذي تظهر فيه.

خرجت من المنزل وصورة كريمة في ذهني، وهي تطير هنا وهناك كالفراشة، وأفكر باللوك، البنات يهمهن اللوك كثيراً، أختي تفعل ذلك، وأضحك لما يعتقده أصدقائي في حواراتهم عن البنات، فهم يقولون إن اهتمام البنات باللوك سببه وقوف الشباب على الناصية التي بجوار المدرسة، أنا أعتقد أن البنات يرغبن في أن يكنّ جميلات، وأن يتغزل بهن الشباب.

نحن أيضاً نحب أن تضحك لنا الفتيات، كم مرة ذهب أصدقائي ووقفوا على الناصية. ربما أنا أهبل، إذ لم أجرب أن أفعل ذلك، ماذا يعني أن أقف مرة هناك لأرى البنات، ولأرى كيف يغيرن أشكالهن وكيف يتزيّن، ربما استفدت شيئاً. التايجر يتباهى بأنه لا يقف على النواصي لكن الفتيات يبتسمن له وهو في طريقه إلى المدرسة، ياه على التايجر «بفكر نفسه حلو كتير» أنا أيضاً جميل، يعني إن وقفت هناك، رغم أنني سمين، هل ستضحك لي الفتيات؟

لكن يا كريم، كثيراً ما تحدث مشاكل في تلك المنطقة، وأولاد كثيرون يعاقبون من وراء هذا السلوك، وعلى حظي، هناك احتمال بأن تقوم الشرطة بكبسية، فأعود إلى السجن. ترددت قليلاً، لا أريد أن أسبب المشاكل لنفسي، ولا أريد أن أعود إلى السجن.. «يا شيخ هي مرة وحدة، مش ح تُخَبك معهم وبيجوا كبسية اليوم».

إلحاح، إلحاح شيء يزن في أذني أريد أن أجرب، أريد أن أكون شاباً تضحك لي الفتيات كالتايجر، ذلك الشاب الذي في السجن أتذكر ما قاله: «تلاقي ولا بنت اطلعت عليه قبل هيك».

إنه مخطئ، نعم هو مخطئ.. سأستجمع قواي وأذهب.

أسير في الشارع وأنا خجل، هل أستطيع أن أقف على الناصية، ماذا لو رآني أحدهم؟ سيخبر أبي بذلك، وسيعاقبني أبي، «هل تريد أن تعاقب يا كريم»؟ أفضل شيء، أذهب إلى جلال وبذلك أمر في الشارع، لكن ما الحجة التي سأختلقها كي أذهب إلى هناك؟

سأقول إني كنت مع كريمة وأحببت أن أذهب إلى المدرسة معك، لكن جلال يعرف أن كريمة تذهب مع صديقاتها، سأقول له: جئت أشتري الملزمة التي طلبها مدرس الرياضيات ومررت عليك لنذهب سوية. الملزمة اشترتها كريمة وأعطتني إياها بعد أن أخبرني التايجر أن الأستاذ قد طلبها، سأخرجها من حقيبتي وأتظاهر أني اشتريتها.

ألفّ وأدور، أفضل شيء ألا أكذب وأكمل طريقي وأذهب إلى المدرسة، ولا.. كل البنات.

يدق قلبي مع كل خطوة أخطوها نحو شارع الفراشات، يدق أكثر وأكثر، قلة هم الطلبة الذين استيقظوا باكراً، ويسيرون الآن إلى المدرسة. سأمشي ذهاباً وإياباً، مرة أو اثنتين وبعدها أركض إلى المدرسة وينتهي كل شيء.. «يا كريم شو بدو يصير قوي قلبك.. ويلله».

وقفت هناك أتصبب عرقاً بسبب الخجل، كانت الفتيات يسرن هادئات ضاحكات إلى المدرسة، يتحدثن بهمس ولا يلتفتن لأحد، أخذت نفساً عميقاً وقررت أن أذهب إلى حال سبيلي، حتى سمعت إحداهن تضحك بشدة وتشير إلي وتهمس لصديقاتها، طأطأت رأسي وتظاهرت أني أسير في الشارع، وأني لم أرَ هذه المجموعة. كنت أريد الركض، الفتيات سخيفات وسخيفات، على ماذا يضحكن! إنهن سخيفات!

لا أتحمل نفسي، كيف فكرت أن أذهب إلى هناك لأجرب الوقوف في انتظار البنات، «قال يعني أشوف اللوك، يعني هلأ ارتحت يا أستاذ كريم وشفت اللوك!» ، أمشي بتثاقل إلى المدرسة مخذولاً، بالكاد أستجمع قواي لأكمل الطريق إلى المدرسة، كان طويلاً جداً والحركة من حولي بطيئة، أعد خطواتي إلى المدرسة وأرقب بوابتها، مرت فترة، ينتابني إحساس بأن هناك أشياء تغيرت. أحاول أن أفكر بهذا الأمر وأجعله حافزاً لأستعجل خطاي إلى المدرسة، وأصلها بأمان.

البواب يقف كأنه يحصي الداخلين، وسيارات الأساتذة تعبر من البوابة الرئيسة، وتصطف تحت الشجرات التي تحاذي السور، الأولاد موزعون في جماعات. كان التايجر وأصدقائي يجلسون في زاوية بجوار المنصة، خاب ظني ولم يتغير شيء. كما تركتها عدت لأجدها، الأولاد يتوزعون في الملعب حسب الفئات العمرية، ويركضون هنا وهناك في انتظار قرع الجرس، رآني أصدقائي وركضوا نحوي مهللين لعودتي إلى المدرسة: «أيوه هيك نورت المدرسة».

أخذوا يسألونني:

- شو كيف صرت هلأ؟

تنهدت وأخذت نفساً عميقاً، أقول:

- هينا رجعنا للمدرسة..

سرعان ما عادت الأمور إلى طبيعتها، وجلسنا جميعاً ننتظر الجرس، كان الأولاد يتحدثون بلهفة عن حفلة أخي التايجر التي ستكون اليوم، كانوا يريدون أن ينبسطوا. ألحوا على بعضهم بعضاً للقدوم وإحياء

الحفل بعرض دبكة. سرحت فيما يقولون، هل سيرضى والدي أن أذهب؟ هل سيحضر؟ فهو يعرف والد التايجر وبينهما مودة، يبدو أن الوضع سيكون مرحاً وسننبسط كثيراً.

قرع الجرس، تفاجأت أن الأستاذ حسن لا يقود الطابور الصباحي، هو لم يفعلها قط ولم يسبق أن غاب مطلقاً، حزنت عندما عرفت أن رجله مكسورة بسبب قشرة موزة رماها طالب على الأرض، ضحكت ولكن أصررت أن أذهب إلى الخياط لتفصيل الملابس البيضاء، بقيت أفكر طوال دوامنا الدراسي الممل، طبعاً أنا فوّت الكثير من الدروس فشعرت بفجوة، افتقدت الأستاذ حسن وحزنت لأجله كثيراً، وطلبت من الأولاد أن نذهب لزيارته والاطمئنان عليه، لكن الجميع كانوا خائفين لأن السبب في كسره طالب آخر.

انتهى دوامنا المدرسي، وكالعادة الجميع يتلكأون في العودة للمنزل، وأولاد كثيرون يحاولون البقاء في المدرسة للعب كرة القدم، أو يحاولون إيجاد أي مكان يستطيعون أن يلعبوا فيه، يرمون حقائبهم على الأرض ويركضون في كل الأنحاء، كأن هم اليوم وثقله قد انتهى. بقيت معهم لأنهم ما زالوا يتحدثون عن الذهاب لحفلة أخي التايجر، لم أستطع أن أعطيهم وعداً بالحضور لأن الأمر مرتبط بوالدي، أعلم أنه لن يدعني أذهب وحدي لأنه يفترض أنني يجب أن أرتاح ولن يجد وقتاً لكي يذهب معي، أكيد لديه الكثير من الدروس ليعطيها، أحزن عندما أتأكد أن والدي غير متفرغ لي وأنه لن يعطيني الحرية للذهاب وحدي. تركتهم وهم يتحدثون برغبة شديدة في الفرح، وتذكرت مباراة كريمة، لابد أنها بدأت منذ فترة، كريمة أختي الوحيدة وأحب أن أشجعها في مباراتها على الرغم من أني أشعر بالغيرة والغيظ، لكن ماذا أقول؟!

أصوات الفتيات كانت تسمع من خارج الصالة الرياضية وهن يشجعن اللاعبات ويصرخن ويهللن، كان أغلب الحضور فتيات. جلست في مقعد خلفي وأنا أتمنى الحظ لكريمة، وأخذت أشير لها بيدي لتراني، ابتسمتْ وسعدتُّ كثيراً، شعرت أن قدومي للمباراة أعطاها أملاً، تشجعت أنا الآخر وبقيت لآخر المباراة أشجعها، وأهلل لها بكل سرور متناسياً كل شيء. النتيجة لم تكن لصالح فريق كريمة، لم أعرف ماذا أفعل؟ خرجت من الملعب وهي تركض وتبكي، تمنيت لو أني أستطيع أن أفعل شيئاً، بحثت عنها وسألت رفيقاتها لكنهن أخذن يتهامسن ويتضاحكن:

- إنت شو بدك فيها؟

شعرت بنبرة من السخرية في كلامهن، وتذكرت الفتاة التي رأيتها في الطريق صباحاً إلى المدرسة وأخذت أقول: «سخيفات.. إنهن سخيفات»، وذهبت أبحث عن كريمة.

كانت تجلس في زاوية بعيدة قليلاً وهي تمسح دموعها، لم تدعني أتحدث قالت:

- شايف المباراة اللي جيت تحضرها خسرت فيها.

لم أستطع التفوه بأي كلام، حملت نفسي المسؤولية، يا ليتني لم أحضر، يا ليتني لم أحضر، لماذا يحدث معي هذا يا إلهي، لماذا؟!

تنهدت ومشيت في الطريق، شعرت بالتعب وركبت سيارة إلى محل الخياط أبي محمود، سمعت صوت ضحك وسخرية، لم يكن في السيارة إلا السائق وراكب في الأمام، وكانا شابين، جسلت في المقعد الخلفي

وهما يضحكان، لم أتدخل وبقيت صامتاً أستمع لضحكهما وسخريتهما ونظراتهما الغريبة إلي، فجأة سألني أحدهما:

- قلت لي وين رايح؟

هززت رأسي وعرفت أنهما أوقفا السيارة ليضحكا مني، بسذاجة قلت لهما أين سأنزل، لم يتركاني بسلام طوال الطريق، وضحكهما لم يخفت للحظة، وأسئلتهما:

- بالله عليك شو بتاكل؟ كيف صرت هيك!

شعرت بالنار تغلي داخلي، وأنه لو صح لي لضربتهما، وعلمتهما كيف يضحكان من الآخرين، لكني لا أريد مشاكل مع أحد، بقيت صامتاً لا أرد عليهما غير مبالٍ بما يقولانه.

أبو محمود هو خياط الحارتين، هكذا يطلقون عليه، إنها المرة الأولى التي أدخل فيها محله، المحل قديم جداً ومعتم، الإضاءة خافتة وصوت الماكينة غريب، كان أبو محمود يجلس خلف الماكينة ورأسه في قطعة القماش التي بين يديه. يبدو أنه لم يسمعني عندما دخلت، فأخذت أكحكح لينتبه إلى وجودي، رفع رأسه وقال:

- أعرف أنك هنا، ادخل واجلس على أي كرسي.

أبو محمود رجل كبير السن، ملامحه غريبة، لا تستطيع أن تعرف هل هو طيب أم لا! كراسيه قديمة جداً، والمكان ألوانه كلها تقترب من اللون الأسود. تذكرت السجن وأبو علي وخفت كثيراً.

- شو بدك تخيط؟

كلمني ورأسه باتجاه الماكينة وقطعة القماش التي يخيطها، باستحياء جاوبته:

- ملابس رياضية، شورط وبلوزة بيضاء.

- معك قماش والا بدك من عندي؟

نسيت أمر القماش كلياً، ولم أعرف ما أقول له فردني هو مرة أخرى:

- ليس معك شيء، روح فوت بالغرفة اللي جوّا وسوف تجد القماش الأبيض اللي عندي إن أعجبك بخيط لك منه، وان ما أعجبك خلص.

فكرت وترددت في أن أخيط ملابس رياضية، مستغبياً نفسي، لأنني بعد ذهاب الأستاذ حسن، أهتم الآن أن تكون عندي ملابس رياضية، وتساءلت: ما الذي يدفعني أن أفعلها الآن.

- شو لساتك يا عمي ما قررت؟

وجدت نفسي في الغرفة أتلمس القماش الأبيض وأقول لأبي محمود:

- خلص مليح.

- طيب تعال عندي أشوف مقاساتك.

توجهت إليه، كان يضع في فمه إبرة، ويمسك المتر بيده. وقفت أمامه وهو ينظر إلي من فوق إلى تحت:

- ما شاء الله، شو ما لقيت شي بالسوق على أدّك فجيت تخيط.

لم أجبه، وتركت يديه تتحركان لأخذ المقاسات، كنت خجلاً جداً وهو يلف المتر حول خصري وينطق ذلك الرقم الضخم، لكنه طمأنني:

- مش انت لحالك زي هيك، والله يا عمي بيجيني ناس ما بفوتوا من الباب أخيط لهم. وبيجوني ناس الله وكيلك الواحد منهم مثل العود، انت ما شاء الله عليك شكلك مؤدب وبصحة كويسة.

ابتسمت له، شعرت براحة تجاهه وأحببته، وتذكرت السيد عمر الرجل ذا البذلة الذي كان في السجن. لا بد أنه خرج الآن، يا ترى هل يتذكرني هل ما زال يحتفظ بصورتي أم مسحها من جهازه؟ هو قال لي أنني أعجبته وكنت جميلاً، ووعدني أن يريني إياها.

- خلال يومين مر خدهم.

- ..

-يا عمو، يا ابني!

انتبهت إليه:

- معلش سرحت شوي.

ابتسم لي وقال:

- الله يبسطك، كمان يومين تعال خدهم.

خرجت من عنده وأنا سعيد، بالأول كنت خائفاً والآن ارتحت لرؤيتي لهذا الرجل الطيب، حتى إنه لم يضحك أو يستهزئ بي، ياريتني جيت خيطت من زمان، يلله يا كريم بتعوضها.

توجهت للمنزل وأنا أفكر بكريمة، كيف هي الآن، وبوالدي، هل سيسمح لي أن أذهب إلى حفلة التايجر؟ يارب... يوافق.

خطر ببالي السيد عمر. قررت أنني في أقرب فرصة سأذهب لزيارته.

(٧)
في المنزل

المنزل كان ساكناً وهادئاً، كريمة في غرفتها تجلس وحيدة، وأمي في المطبخ تنتظر عودة أبي لتعد طعام الغداء. رائحة الفاصولياء كانت تفوح من مدخل المنزل.. امممممممم، إني أحبها كثيراً، لكن قطعت عهداً على نفسي ألا آكل، وسأقاوم ذلك. طرقت الباب على كريمة أكثر من مرة، لكنها كانت ترفض قطعاً أن تفتح، وبوصول والدي تحايلت عليها بإلحاح أن تفتح لتتناول طعام الغداء.

لم أكن أريد أن يعرف أحد أنني قررت الامتناع عن تناول الطعام، جلسنا إلى المائدة لا أحد يتحدث، لم أعرف كيف أستطيع أن أتهرب من كمية الطعام التي سكبتها أمي، كريمة رفضت أن تضع شيئاً في فمها، وبقيت جالسة هكذا دون كلام، تتأملنا ونحن نأكل، الحزن كان واضحاً على وجهها، لا أعلم هل عرف أبي أن فريقها خسر المباراة أم لا، لكن أعرف أنه كان يرفض لعب كريمة في الفريق، وأنه لم يكن يحب لباسها الرياضي بالتنورة القصيرة، ولا يحب نطنطة البنات. ظل والدي صامتاً ينظر إلينا بعينيه. أخيراً قال:

- ليه ما بتاكل؟

لم أعرف ما أجيبه، حاولت أن أغتنم الفرصة وأخبره عن حفلة أخو التايجر:

- ال.. ال..

لم أستطع إلا أن أتأتئ بحرفين، وبعدها التزمت الهدوء، أفضل أن أقول لأمي وبعدها هي تأخذ لنا الأذن.

- شو يا كريم! شو كنت عايز تحكي؟

لاحظ أبي سرحاني وأني أريد أن أقول شيئاً، وبالرغم من أن كريمة لم تنطق طوال جلوسنا، إلا أنها نطت وقالت:

- اليوم أكيد حفلة أخو التايجر.

نظرت إليها مستغرباً وغمزتني بعينيها، نظر والدي إلي وأنا أرج:

- طيب وخايف تحكي ليش؟

صراحة لم أعرف ما أقول له، لكن بلعت ريقي وقلت:

- وصلت دعوة الفرح للمنزل.

هذا ما استطعت أن أقوله.

- يعني انت مليح وصحتك مليحة عشان تروح؟

طأطأت رأسي، فطالما حكى والدي فهذه إشارة إلى أنه غير موافق، وأنه يفضل أن أبقى في البيت أذاكر ما فاتني من الدروس، كنت أهم بأن أحمل نفسي وأذهب إلى غرفتي.

- أبو وليد طلب مني إني آجي وأكد عليّ.

صدمت بما قاله والدي، وفي الوقت نفسه لم أفهم ما هو رأيه أو ما هو موقفه من الذهاب.

- اسمع يا كريم، أنا مشغول، مشغول كتير اليوم، ح اسمح لك تروح مع أصحابك، يعني تحضر بدل مني.

كدت أطير فرحاً لما قاله، لكني تمالكت نفسي وبقيت هادئاً وانسحبت إلى غرفتي لأحضر نفسي للحفلة، فالأولاد كلهم قالوا أنها ستكون مميزة.

فتحت خزانتي أبحث عن ملابس تلائم الحفلة، بعكشت في كل أغراضي ونفلت كل الملابس التي في الخزانة، حتى أصبحت الثياب كومة أجلس عليها، تأففت وأنا لا أجد شيئاً، أخذت أجرب كل القمصان والبناطيل، ليست عندي رغبة في ارتداء أي منها، كلها أبدو فيها أسمن مما أنا، أخذت أتأمل الثياب وأنا عاجز لا أدري ما أفعل من جهة، ولا أجد أي شيء أرتديه من جهة أخرى. لو جاءت أمي ووجدت المكان هكذا، ستغضب كثيراً وربما ستمنعني هي من الذهاب. علي أن ألطف الجو مع كريمة وأجعلها تساعدني.

خرجت من الغرفة وأقفلت الباب خوف أن تراها أمي، أخذت أبحث عن كريمة في أرجاء المنزل، لابد الآن أنها هدأت وبخاصة بعد قول والدي لها بلطف: لا تهتمي، أنا استغربت موقف والدي، لكن يبدو أنه اليوم رائق، وما حد نكد عليه.

صوت التلفاز كان عالياً، أكيد كريمة تشاهده الآن. هي تحب أن ترفع الصوت لأعلى درجة غير مبالية بما تسببه من إزعاج، المهم أنا لن أتجادل معها بأي شأن لعلها تساعدني. عادة ما تجلس على أول مقعد

بجانب التلفاز، هي منسجمة جداً تحب أن تشاهد قنوات معينة وبخاصة البرامج التي باللغة الإنجليزية.

دخلت وجلست مقابلها متحججاً أني أشعر بالملل وأريد أن أشاهد التلفاز معها، كان البرنامج الذي تشاهده له علاقة بالرياضة وخسارة الوزن، هذا ما فهمته على الأقل، هذا النوع من البرامج لا يستهويني بالمطلق لكن ماذا أفعل؟ أنا مضطر. نظرت كريمة إلي كأنها لمست أني أريد منها شيئاً، اللئيمة نظرت إلي نظرة فيها شيء من المكر، وعادت تتفرج إلى التلفاز، ولكي تستفزني، أخذت تقلب القنوات وتعود للبرنامج مرة أخرى:

- بعرفك بتحبش هاي البرامج.

الآن تريد كريمة أن تنكش رأسها علي، سأتجاهل الأمر وأحاول أن أكسبها إلى صفي:

- مش مشكلة، تغيير، يمكن أستفيد.

أخذت تقهقه:

- هو يا خوي مفروض ليل نهار تتفرج عليها، يعني يمكن ضعفت لك شوي..

وعادت لقهقهتها.

لا أنكر أن كريمة في هذه اللحظة استفزتني جداً، ولو أني لا أريد أن تساعدني لوقفت وأريتها كيف تستهزئ بي.

لاحظت كريمة أني لا أريد أن أتجادل معها أو أن أثير مشكلة، فالتزمت الهدوء وأخذت تعبر بوجهها عن استغرابها مني.

بقيت تقلب القنوات، وفي النهاية أقفلت التلفاز ووضعت آلة التحكم جانباً وأخذت تنظر إليّ.

هربت من نظراتها وظللت أنظر إلى الأرض:

- كريمة، كريمة..

- آه احكِ... انطق..

- أصله، يعني بحكي...

- آه شو، بدك؟

بلعت ريقي:

- بصراحة، أريدك أن تساعديني.

رفعت حاجبيها:

- آه احكِ هيك، صار لك ساعة بتتسحب وبتتنغم، طيب وشو بدك؟

- أصله إنت عارفة اليوم حفلة التايجر، وأنا من زمان ما طلعت ورحت، يعني عارفة لزوم الشي..

- طيب انت بدك تروح أنا شو بدي أعمل؟

- بدك تعملي كتير.

أخذت كريمة تضحك كعادتها وتقهقه:

- بدي أعمل كتير؟

استفزتني كريمة:

- بجد بحكي، وما تتمسخري، مش عارف أختار إشي ألبسه، ونعفت كل الثياب، وإن شافتها إمي حتعمل لي قصة إلها أول ما إلها آخر.

هزت رأسها:

- يعني بدك ياني أرتب لك الغرفة وأختار لك شو تلبس، ليش لأ.

معقول! أكاد لا أصدق أن كريمة وافقت بهذه السهولة ودون مقابل:

- يعني بدك تساعديني.

ضحكت وغمزت لي:

- بس بدك تقول لي أول شو كنت تعمل قبال مدرستنا.

فاجأتني كريمة! ارتبكت، كيف سأهرب من هذه القصة، أو ماذا سأختلق لها؟ لن تحل عني ولن تساعدني إلا إذا عرفت كل شيء، وبالكاد ستصدق حتى لو قلت لها السبب الحقيقي وراء ذهابي إلى هناك.

- شو، بتفكر يعني مش ح اعرف لما تميل هيك ولا هيك وبالأخص وين؟! قبال مدرستنا.

كيف عرفت أني ذهبت إلى هناك؟ أصلا الشوارع كانت خالية، ويا دوب رأيت فقط أولئك الفتيات السخيفات اللواتي أخذن بالضحك، يا الله! ماذا سأقول؟ ستظل تزن، هذا إن لم تهددني بأن تخبر والدي بالأمر. أحسن شيء أن أفاوضها الآن، وأجعلها تساعدني، وأخترع لها أية حجة تقتنع بها:

- إنت تعالي ساعديني وأنا ح احكي لك واحنا بنرتب.

فضولها جعلها تنط مسرعة من مقعدها وتسحبني إلى غرفتي، متحمسة لترتيبها ولمعرفة سر ذهابي إلى هناك.

استغربت كيف أن كريمة ساعدتني في ترتيب الغرفة، بل إنها لم تصر كثيراً على معرفة سر ذهابي إلى المدرسة من طريق مدرستها، اختارت لي غيارات عدة لأجربها، وأخذت تمازحني قائلة:

- بصراحة همه قالوا لي إنو أخوك خجول، واحمرّ كتير بس شافنا.. انت بتعرفهم يا كريم؟!

في تلك اللحظات لم آخذ بالي كثيراً من الفتيات اللواتي نظرن إلي في الطريق، لكنني أحببت أن أسمع من كريمة ماذا قلن.

- لم أنتبه كثيراً، همه بيعرفوني؟!

ضحكت كريمة وقالت:

- لمحنك أكثر من مرة عندنا في البيت!

شعرت بالحرج ولاحظت كريمة ذلك، غمزت لي وعادت ترتب الثياب التي جربتها:

- بتصور أن قميصك الأبيض وبنطالك الأسود مع جاكيتك الأسود الخفيف، سيكون جميلاً.

- قميص أبيض! أنا عندي قميص أبيض؟

سألت كريمة باستغراب؟

- ألا تعلم أن لديك قميصاً أبيض؟!

لم أكن أريد أن تلاحظ كريمة أزمتي مع اللون الأبيض، حاولت أن أتدارك الأمر بسرعة:

- أنا نسيته تماماً.

- لكنه جميل، وسيبدو عليك جميلاً، حاول أن تجربه.

كنت متردداً، بلعت ريقي لأن ذكر القميص الأبيض سبب لي الارتباك والخوف، مع أني تخيلت أن الأمر أصبح عادياً بعد ذهابي إلى الخياط أبو محمود لكي يخيط لي الأبيضين.

سرحت وفكرت بزيارتنا للأستاذ حسن، فقد اتفقنا على أن نزوره قبل ذهابنا إلى حفلة التايجر، وبخاصة أنه شجع الجميع على زيارتي في المشفى، وكان راغباً في مشاركتنا الابتهاج والفرح، كيف ستكون ردة فعله إن رآني أرتدي قميصاً أبيض!

- كريم، كريم اذهب وجربه.

هزتني كريمة وهي تلح علي أن أجربه، انتابني الارتياح فجأة، وأخذت القميص لأجربه هو والبنطال متخيلاً كيف سأبدو:

- رائع! إن هذا الاختيار هو الأفضل من بين ثيابك.

كانت هذه ردة فعل كريمة، طلبت منها أن تبتعد قليلاً من أمام المرآة. نظرت إلى الثياب وإلى جسدي متأملاً وأنا أدور وألف، وأتذكر كيف كانت كريمة تدور متباهية بالثياب الجميلة ونحن في السوق. شعرت بنشوة وأنا أنظر إلى نفسي أرتدي اللون الأبيض، القميص كان ناصعاً وذا نقاء يشعرك بالرا حة كلما نظرت إليه، كان أبيض مخططاً بخطوط سوداء طولية خفيفة جداً، أكسبته رونقاً خاصاً شبابياً.

- ارتدِ الجاكيت.

ابتسمت كريمة وهي تمسك الجاكيت بيديها وتساعدني على ارتدائه.

- تبدو عريساً بثيابك هذه!

كريمة تقول أنني أبدو عريساً بهذه الثياب. لم تستهزئ بي ولم تذكر مطلقاً أني سمين! بل بادرت إلى مساعدتي بتصفيف شعري، وبإيجاد الشكل الملائم له مع «لوك» الثياب.

ركضت كريمة إلى غرفتها وجلبت علباً وكذلك سشوارها:

- اليوم سأكون خبيرة تجميل.

لم أعرف ماذا أقول، ولا بماذا أفكر، لكن عرفت أني أحب كريمة كثيراً وأننا توأمان مشاكسان.

كانت كريمة تشتغل بشعري وأنا أتأمل اهتمامها بي، وكيف أنها تهتم بكل شعرة من شعراتي، تمازحني وهي تعمل وتقول:

- سترى كيف ستكون أجمل واحد.

انتهت كريمة من عملها. طلبت مني أن أدور وأنظر إلى نفسي في المرآة. خرجت وقالت إنها ستغيب ثانية وتعود.

عادت وهي تقول:

- سألتقط لك صورة.

تنهدت وتذكرت أن السيد عمر التقط لي صورة، كما قال.

(٨)

الصورة

اتفقنا أن نلتقي عند ناصية الشارع المؤدي لمدرستنا، كان جلال أول من وقف ينتظر، رآني من بعيد وهو يضحك ويقول:

- ياعم واحنا بنقول ليه متأخر!

أعجب الأولاد بثيابي ولم يصرخوا علي لأني تأخرت عليهم، لكنهم لم يكفوا عن التعليق طوال طريقنا لزيارة الأستاذ حسن:

- شكله كريم بيحب! بدا يهتم بحاله!

- لا لا، إحنا كنا نروح على المدرسة وهو عامل حاله عيان، وكان بيعمل لوك جديد!

كنت أستمع لهم وأنا أضحك، مجرد أني لبست ملابس أنيقة يعني أني عملت «لوك» جديداً وتغيرت كلياً! نسي الجميع أني سمين وأني بدين وأني بالون!

توقعت أن غرفة الأستاذ حسن ستكون بيضاء، لكني تفاجأت عندما وجدته ينام في غرفة مطلية بلون البنفسج الفاتح، سريره ذو غطاء بتشكيلات من الورود والغرفة نفسها مليئة بالورود! فتحت عيني وأغمضتهما أكثر من مرة، حتى اللحظة لا أصدق ذلك، الأستاذ حسن شخص آخر مختلف! استقبلنا بالابتسامات وهو يعاتبني:

- تأكلون الموز وتدعونني أقع وأتكسر.

كانت إصابته صعبة، ولم تقتصر على رجله. كانت هناك رضوض في وجهه وجروح على يديه، ويبدو أنه يتألم، وبالرغم من ذلك، كان يمزح ويضحك طوال فترة جلوسنا معه أخذ يمازح جلال، وكالة الأنباء المتنقلة، وهو يقول:

- أتوقع أنك ستفتح محطة مستقبلاً يا جلال.

الجميع كانوا يضحكون ويمزحون.

- كريم لماذا تقف هناك؟ كيف أنت الآن؟ اشتقنا إليك!

طلب مني الأستاذ حسن أن أجلس إلى جواره، لاحظت أنه انتبه إلى قميصي الأبيض، لكنه لم يتطرق إليه ولم يمازحني كما فعل مع الآخرين، بل سألني كيف أنا وهل أنا مستعد في دروسي، وبخاصة أن العام الدراسي شارف على الانتهاء!

- سأحاول أن أبذل جهدي، والتايجر سيساعدني.

الجميع ردوا على الأستاذ حسن:

- كلنا ح نساعده، بس هو يشد همته!

ضحك الأستاذ حسن وهو يقول:

- كريم، أتعلم أني كنت أسمن منك وأنا صغير!

صمت الجميع فجأة عندما أعلن الأستاذ حسن هذه الحقيقة، ظلوا صامتين لأكثر من لحظة حتى قال:

- ما تنسوا إني الأستاذ الأول بالرياضة، وممكن أعاقبكم كلكم.

ضحك الجميع، وهمس الأستاذ حسن في أذني:

- بقليل من الإرادة والرياضة ستصبح أفضل مني.

تنهدت وجاوبته بهمس بالكاد يسمع:

- لكن أنا لا أريد أن أصبح رياضياً.

لم يسمعني الأستاذ حسن جيداً، لكن اعترافه بأنه كان سميناً، وكشفه لي أنا بالتحديد هذه الحقيقة، بدا كأنه يوضح لي لماذا كان يشد عليّ في حصة الرياضة، كان يعتقد أني أريد أن أنحف أو أصبح رياضياً من الدرجة الأولى. أنا لا أحب الرياضة، لا أحب أن أتعب، لم أرغب في ارتداء ملابس رياضية. نعم، أغار من كل زملائي الذين يركضون ويلعبون وينطون ويضحكون، ولكن أنا لا أرى نفسي في هذه الأشياء، ربما كانت عندي رغبة في أن ألعب وأركض غيرة، لكن أنا أعرف أني لا أحب الرياضة.

قبل مغادرتنا بيت الأستاذ حسن، لم يكن بمقدوري أن أعده بشيء إلا أن أحاول ممارسة الرياضة قدر الإمكان، كي يصبح جسمي أكثر مرونة وحركة.

ضحكنا كثيراً في بيت الأستاذ حسن، وخرجنا كلنا من عنده ونحن متحمسون لحفلة التايجر، للابتهاج والرقص والشعور بالفرح.

سمعنا الموسيقى من أول الشارع، ركض الأولاد مبتسمين، يريدون أن يرقصوا ويفرحوا ويطيروا لهواً. استقبلنا التايجر، ياالله كم كان جميلاً هذا التايجر! كان أميراً بابتسامته وبما يرتديه، كان بسيطاً بملابسه وأنيقاً، استقبلنا بترحاب وخصص لنا مكاناً في المقدمة، واصطحب فريق الدبكة لكي يبدل أفراده ثيابهم تمهيداً للعرض.

الجو كان جميلاً والموسيقى عالية، الجميع يرقصون ويضحكون، وعندما نزل فريق الدبكة هلل الجميع وصفروا تحية له. كان الأولاد يتحركون بخفة مطلقة، يطيرون في الهواء، يدبكون ويهزون الأرض بخبطات أرجلهم. أبتهج وأنا أتابع كل شيء، وأتذكر ابتسامة كريمة وهي توضبني للحفلة، وابتسامة أبو محمود الخياط الطيب.

نهض الجميع للمشاركة في الرقص، سحبني أصدقائي لكي أرقص! لا أعرف الرقص ولا أعرف أبداً أن أدبك، لكن صوت الموسيقى وفرح الجميع جعلني أندمج معهم، وأصفق لهم. المصور هو الوحيد الذي وقف يراقب الحفل ويرصد حركات الجميع ويلتقط الصور، كنت أراقب حركة الكاميرا وهي تتحرك وتدور في أجواء الحفل.

أثار استغرابي الرجل الذي يقف خلفها وهو يبتسم، كان أنيقاً وجميلاً، ملابسه وأناقته كانت تذكرني بالسيد عمر، كان الجميع مندمجين في الرقص، وأنا وقفت صامتاً أراقب هذا الرجل، الشبه بينه وبين الأستاذ عمر واضح كأنهما أخوان، خجلت أن أذهب لكي أسأله، افترضت أنه لو كان السيد عمر، لأخبرني بذلك.

جلست على كرسي أشاهد الحفل وعقلي مشغول بالمصور وبالسيد عمر وبالسجن، خفت إن كان هو السيد عمر أن يقول للناس إنه تعرّف علي في السجن! ومن جانب آخر أتمنى أن يكون هو السيد عمر، فمنذ غادرت السجن وهو لم يغب عن بالي، الحيرة التي أصابتني والصراع الذي انتابني فجأة، جعلا أصدقائي يلاحظون ويعتقدون أنني ربما متوجع من جرحي؟ لم أرغب في أن يعرفوا بأني قلق وحيران، كل ما كنت أريده أن أعود إلى البيت وأرتاح، لكن هل يوافق أصدقائي على مغادرة الحفل

وهو في ذروته؟

ولم أرغب في أن أكون أنانياً، حافظت على الهدوء وأخبرتهم أني بخير، وأنه من الأفضل أن أكون مرتاحاً.

- هل أنت خائف؟!

انتفضت مستغرباً، فجأة وجدت أحداً يسألني هل أنا خائف! رفعت رأسي إليه، وجدته شخصاً جميل الهيئة يشبه السيد عمر، يتحدث إلي ويقول:

- افتقدتك كثيراً، وكنت أبحث عنك!

- السيد عمر!

ضحك وجلس إلى جواري:

- لاحظت أنك كنت متحمساً في بداية الحفلة، ومن ثم انزويت جانباً!

لم أعرف ماذا أقول له، بقيت صامتاً وخجلاً منه.

- بروزت صورتك ووضعتها في المحل.

السيد عمر كان حكيماً، أخرجني من الموقف وذكر شيئاً أريد أن أسمعه وأن أتحدث معه فيه: - بروزتها؟!

- قلت لك، لقد كنت جميلاً.

صرخت غير مصدق، وكنت متلهفاً لرؤيتها:

- أريد أن أراها.

ابتسم ابتسامة ماكرة:

- هي موجودة في المحل يا كريم، لو كنت وفيت بوعدك وزرتني لرأيتها.

حككت رأسي خجلاً ربّت على كتفي وهو يضحك:

- لا أعاتبك، أنا أمازحك فقط، يفترض بي أنا أن أزورك، أخبرني كيف أنت بعد ذلك الجرح الذي سببه لك أبو علي.

- أنا بخير.

نسيت الحفلة تماماً واندمجت مع السيد عمر، لم يستطع أن يتحدث إلي كثيراً لأنه مضطر لأن يعود ويكمل تصوير الحفلة، لكنه وصف لي موقع محله، وطلب مني أن أساعده في الإجازات.

عدت للمنزل وأنا أفكر بالأستاذ حسن الذي كان سميناً، كيف صار الرياضي الأول في المدينة! فعل هذا لأنه رجل ذو إرادة قوية، الأستاذ حسن لم يكن يكرهني لكنه كان يخاف أن أظل سميناً.

كريمة كانت تجلس في الصالون تنتظرني لتسمع ما جرى في الحفل، لم أرد أن أكون جلفاً، حافظت على ابتسامتي وحاولت قدر الإمكان أن أسرد عليها ما يمكن أن تسعد إذا سمعته، تمنيت لها ليلة سعيدة وآويت إلى فراشي وأنا أفكر بالسيد عمر متمنياً أن يوافق والدي على أن أذهب إليه لأعمل عنده في الإجازات.



(٩)

ابتسامة خفيفة

وضعت رأسي على الوسادة وأنا أتذكر تلك الابتسامة الخفيفة.

يومي كان حافلاً السيد عمر يريدني أن أتعلم بسرعة. اكتشفت الكثير من الأشياء المختفية وراء الوجوه، كلنا نصبح أجمل عندما نبتسم ونضحك، لكنني مازلت أستغرب كيف نبتسم من أجل صورة، وعندما ننتهي منها نعود إلى تكشيرتنا! جاء إلى المحل اليوم مجموعة من الفتيات، شككت في الأول أني أعرفهن.

حاولت أن أتجاهل الموضوع، وركزت ذهني في عملي.

عندما أخذن الوضعية التي يردن أن تتصور بها كل واحدة، كنت أنظر إليهن بعدستي، وأرشد كل صبية للجلوس بطريقة تناسبها وتلائم الصورة. من خلف العدسة، ظهرت تلك الابتسامة الخافتة وتذكّرت الفتيات، إنهن صديقات كريمة! هن الفتيات أنفسهن اللواتي رأيتهن في الطريق، وهن لا شك يعرفنني. خجلت أن أتحدث إليهن، غير أنني حاولت أن أخرج صورهن في أجمل شكل، ووعدتهن بذلك.

غادرن المحل وهن يقلن:

- نحن متأكدات من ذلك.

هي كانت هادئة وساكنة.

خرجن من المحل، وهي التفتت نحوي وابتسمت ابتسامة خفيفة.

هذه المرة خفت حقاً، ما الذي حدث؟ لماذا هم مستغربون مني؟ أصبح هناك أناس كثيرون ينظرون إلى الواجهة، ارتعبت من هذا المنظر، أصبح قلبي يدق مسرعاً، أخشى أن أتحرك فيكتشفوا أنني لست تمثالاً. لكن كيف أستطيع أن أفعل هذا وأنا أكاد أقع من شدة الرعب! إنهم يتجمهرون حولي كأنني شيء غير عادي، ينظرون إليّ كأنما يريدون أن يأكلوني بأعينهم. التفت الجميع إلى كريمة وإلى أمي وهي تشهق شهقة كبيرة، كادت تصرخ، غير أن شيئاً منعها، طأطأت رأسها وأخفت دمعتها، لا أعلم هل كانت تنتظر حدوث شيء أم أنها شعرت بالخجل مني.





مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي
Tamer Institute for Community Education

ISBN 978-9950-326-49-1